حوارات مع ليوكو

أساطير في أسرار الموت والحياة

تشيزَري بافيزي



ترجمة :
موسى الخميسي

نبذة عن المؤلف:

تشيزَري بافيزي (1908-1950م)، شاعر وكاتب إيطالي. عدّ الأسطورة معينه المفضّل الذي استقى منه نصه. له عدة أعمال منشورة نثرية وشعرية منها: «الشيطان على الهضاب» و«السجن».

تشيزَري بافيزي

حوارات مع ليوكو

«أساطير في أسرار الموت والحياة»

ترجمة: موسى الخميسي

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

حوارات مع ليوكو

«أساطير في أسرار الموت والحياة»

تشيزَري بافيزي

PQ4835.A846 D512 2011
Pavese, Cesare
حوارات مع ليوكو / تأليف تشيزري بافيزي؛ ترجمة موسى الخميسي.- أبو ظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
207 ص ؛ 17×24 سم.
ترجمة كتاب: Dialoghi con Leuco
تدمك: 978-9948-01-950-3
1- القصص الإيطالية-العصر الحديث-المترجمات إلى العربية.
2- الأدب الإيطالي-العصر الحديث-المترجمات إلى العربية.
أ-خميسي، موسى.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي:
Cesare Pavese
Dialoghi con Leucò

كلمة KALIMA
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.cultural.org.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

حوارات مع ليوكو

«أساطير في أسرار الموت والحياة»

المحتويات

توطئة

من أجل جعل نتاج الشاعر الإيطالي تشيزَري بافيزي، الذي وضع بصماته الإبداعية على مسيرة الشعر الإيطالي المعاصر، منفتحاً على لغتنا العربية، قمت بترجمة نصوصه وقصائده بعد معايشة حميمة معها. وسنرى من خلال عمق هذه النصوص، ما ستعكسه إلينا من اطلاع ومعرفة جديدين ومخالطة قريبة للعديد من المنطلقات الفكرية والفلسفية والجمالية، التي أرادها من خلال رحلاته في رحاب الفكر الأسطوري اليوناني القديم.

وقد سعيت إلى التوفيق بين الجمالية والأمانة، ولم أتوان عن اللجوء إلى الترجمة الحرفية في أحيان كثيرة عندما كنت أدرك أنها لن تضر بالنص المنقول إلى لغتنا. كما إنني من جانب آخر حرصت على اختيار المفردات والمرادفات الأكثر قدرة على الاقتراب من روح الكلمة الأصلية في اللغة الإيطالية. ولكي لا تأتي النصوص المترجمة هجينة، صعبة القراءة أو الفهم، حرصت على تقديم هذا النتاج الأدبي بكل حيثياته بعيداً عن الحرفية، والتزويق اللغوي. وحتى لا تتسبب هذه الترجمة في ضياع الكثير من روح النصوص وشاعريتها، فقد تعايشت مع الأسلوب المبسّط للكاتب وطريقته في تركيب الجملة الشعرية وأهميتها، جاهداً قدر المستطاع في الابتعاد عن التعقيد، لكي لا أجعل هذه الحوارات ركيكة أو ضعيفة أو صعبة على الفهم، بحيث تكون قادرة على نقل البيئة والحدث بصدق، بعيداً عن أي خيانة ثقافية.

ولكي أُيسّر على القارئ العربي فهم النص، حرصت على أن أضع أسماء الآلهة الإغريقية القديمة، وأسماء الأبطال والأشخاص والمدن، التي وردت في الحوارات بين قوسين، وذلك لأن عملية شرحها تتطلّب وضع قاموس مفصّل ملحق بهذا الكتاب.

الشاعر بافيزي

يعتبر الشاعر والكاتب تشيزَري بافيزي أحد أبرز الشعراء الإيطاليين المعاصرين، حيث جعل من حركة الشعر الحديث خلاصة فنية لكل الحركات التي سبقته، وأصبح طليعة متميزة لمن أتوا بعده. كما جعل من قضية الموت في كلّ نتاجاته الروائية والشعرية معادلاً للحياة، عكَس من خلالها تمزق الإنسان، وفجّر نبتة الموت المختبئة بداخله. وظل بافيزي متوارياً وراء قصيدته، يتفيأ في ظل الموت الذي كان يترقبه، ويحاوره، ويحمله بداخل روحه، حتى لحظة المواجهة الدموية التي جسدها في انتحاره عام 1950، في غرفة بأحد فنادق مدينة تورينو شمال إيطاليا.

عاش السنوات المضطربة التي شهدت أوج نهاية أحد أبرز الأنظمة الدكتاتورية في القرن العشرين، الذي تحكم في مصير إيطاليا طيلة عشرين عاماً، كما شهدت إيطاليا في تلك الفترة هزيمتها القاسية في الحرب العالمية الثانية، فحمّلت تلك الأحداث زمن الشاعر بالغضب والخوف حتى أصبح الموت مصير كل شيء، ومبدأ كل شيء، وحاضر الإنسان آنذاك لم يكن ينبئ بمستقبل. وقد تجسد ذلك في صُلب أشيائه وكلماته، وأصبح صوفياً في إخلاصه ونقائه، مادياً في حرارته وواقعيته، يمجد الحياة بالعشق، ويخاف منها بالموت.

وُلد بافيزي سنة 1908م في بلدة سانتو ستيفانو بلبو في منطقة لانكا بمقاطعة (بييمونْتي) الشمالية، التي شكلت لحمة قصائده وروايته، وبدأ منذ مطلع شبابه يتردّد على الأندية الفكرية في مدينة تورينو التي كانت آنذاك مركزاً ثقافياً وسياسياً مرموقاً، حيث كان العديد من المثقفين قد أسسوا مجلّة (الثقافة) التي ألقت بالأديب في أتون الحياة، جاعلة إياه في حركة دائمة من التحول باتجاه سيطرة الإنسان الإيطالي على مصيره، أمام واقع التفتّت الذي أحدثته الهزائم المتتالية على الواقع الإيطالي. وقد أصبحت مقاطعة بييمونتي بالنسبة للشاعر بمثابة التحقق من ظاهر العالم، كما أصبحت السور الذي ما أن يحط الشاعر بقدمه خارجه حتى يشعر بالغربة. وبييمونتي هذه أصبحت لدى الشاعر في ما بعد هاجس التواصل المتضامن، لكل ما حققه من إبداع شعري وروائي، فكانت عن حق وفي الوقت ذاته عالماً يتراجع وآخر يتقدم.

أكمل بافيزي دراسته وتخرّج من كلية الآداب في مدينة تورينو، وانصبّ اهتمامه على اكتشاف الأدب الأمريكي، وراح يترجم كتباً عديدة لأدباء وشعراء أمريكيين رأى فيهم قدراً كبيراً ومتميزاً، من وضوح الرؤية وأصالة أكثر وصلة أوثق بالتراث الثقافي الأوروبي. وكان لترجمة رواية (موبي ديك) للكاتب الشهير (ميلفيل) إحساس داخلي يضغط عليه بضرورة الخلق والتجديد من أجل مواكبة حركة الأدب العالمي، كما أن تلك الترجمات تركت من ناحية أخرى أثرها في أول مؤلفاته الروائية (العمل المتعب)، التي أصدرها في عام 1936م ودخل من خلالها إلى عوالم النفس البشرية ومفارقاتها الحياتية والفنية، ضمن أجواء المواجهة اليومية للشرائح الاجتماعية الفقيرة التي تتعامل مع العالم الخارجي الذي يحيط بها على أساس التكافؤ وليس على أساس الرغبة في الالتصاق بهذا العالم.

ارتقى بافيزي بمواقفه الشعرية، التي استمدت طاقتها الإيحائية والتعبيرية، جراء عملية اعتقاله من قبل قوات الحرس الفاشي عام 1935م، حيث أودع حين ذاك في أحد السجون التي تقع في إقليم كالابريا الجنوبي مع مجموعة من زملائه في مجلة (الثقافة)، فكان ذلك بمثابة الحدث الذي جعله يتفتح إلى أقصى قواه الخاصة ووسائله التعبيرية، ويؤكد على أن العمل الثقافي هو أحد الحلول التي يبتكرها الإنسان لمشكلاته. فقد كتب روايته الطويلة (السجن) ما بين عامي 1935–1936م ونشرت بعد سنوات عديدة في المجلد الذي حمل عنوان (قبل أن يصيح الديك)، الذي ضم أيضاً روايته الشهيرة (البيت على الهضبة). ورواية (السجن) تعبّر عن عذاب التجربة إلى الحد الذي أصبحت فيه رمزاً لمصير البشر، وأصبح بافيزي نفسه من خلالها مسؤولاً عن كشف الرعب الحقيقي الذي يصيب الإنسان الذي يقع تحت وطأة القهر، كما إنها تمثل دعوة أولى يوجهها الأديب إلى نفسه وإلى الآخرين كي يخرجوا من عزلتهم، ويقفوا خارج النظرة العدمية المشروطة.

و(السجن) عند بافيزي ليس هو الجدران التي تحصر الإنسان بداخلها، بل هو مزيج من صور الهجرة الداخلية التي تتسم بالعدمية، وهو التسكع الداخلي الذي تجابهه الصرخة البشريّة بين الحين والآخر من أجل فضح أبعاد الفاجعة الإنسانية. إنها، ومن جانب آخر، المطالبة بتعرية جوهر الفاجعة الإنسانية لحمل المثقّف على تجاوز الهزائم والاحتجاج على

كافة مخطّطات التصفية والمساومة على الأرض التي يقف عليها.

يعود بافيزي عام 1936، عقب صدور العفو عنه من قبل الحكومة الفاشية للمدة المتبقية من محكوميته، إلا أن تجربة السجن المريرة التي أكسبته وعياً سياسياً استشف من خلالها واقع الهزيمة السياسية التي كانت بلاده تعاني منها، وفشله في تجربة حب قاسية مع امرأة، جعلاه يتردد ويشك ويذعن للخيبة في حياته، فلعب الحب بقلبه دور الموت مما جعلته تلك الحالة ينصرف كلياً إلى أعماله الأدبية منطوياً على نفسه وكأنه بطل يموت كل يوم ثلاث مرات، بكبريائه وندمه وحزنه.

عام 1939 كتب روايته القصيرة (قراك) وهي أول مؤلف له تم تسليمه للطباعة في عام 1941، وإن لم يكن أول كتاب ألفه كما ورد سابقاً، إلا أن هذا العمل الروائي واجه انتقادات لاذعة نظراً لقساوة موضوع الرواية وأسلوبها، كما وُصف هذا العمل الروائي بأنه تتابعات شكلية يدل بعضها على بعض تقود القارئ إلى معرفة الأبعاد النفسية لنموذج البرجوازي المتردد، وأجمع النقاد في حينها على أن الرواية هي تقليد للأساليب الأمريكية، وهي تتجه ذات الاتجاه الذي يكاد يميز جميع أعمال بافيزي بتصوير التباين القائم بين الريف وعوالمه السحرية، الذي يمثل حالة ارتجاع للذاكرة عند المؤلف، وبين عالم المدينة الموحش الذي تسوده الغرائز المكبوتة. وترسم الرواية في النهاية الخط الفاصل بين اللحظات الراهنة والتاريخ حين يتحول حاضر الإنسان إلى وحش يحاول افتراس ذاكرته.

وقد كتب بافيزي في الفترة نفسها رواية أخرى قصيرة عنونها بـ(الصيف الجميل)، ولم ينشرها إلا بعد عشر سنوات مع روايتين كتبهما في فترتين متباعدتين وهما (الشيطان على الهضاب) و(بين نساء وحيدات). وقد اعتبر النقاد أن هذه الأعمال تشكل ثلاثية يدخل بافيزي من خلالها عتبة العالم من أجل التجانس والتماثل، إلا أنه رد على منتقديه موضحاً بأن رواياته لا تعدو أن تكون محوراً للتجارب التي تتعرض لها الشبيبة في الوقوع رهن المتاهات التي يخلقها الواقع الاجتماعي، ثم الميل والانجراف إلى الشهوة التي تظهر بعض الأحيان كحاجة غير سليمة تتجاوز الأصول، مما يؤدي ذلك إلى عواقب الوقوع في سجن العقوبة الاجتماعية المرتقبة التي تقع عادة على الشبيبة الأصغر سناً في التجارب.

وقد كتب بافيزي رواية (الشاطئ) عام 1942 وقصص (عطلة أغسطس) التي صدرت عام 1946، وهي تحكي قصة الطفولة وتعالج قضايا مختلفة وتحمل إرهاصات الواقعية الإيطالية التي تربت في أحضان الرومانسية الفرنسية، كما تعكس غربة الكاتب عن عالمه وقومه ومجتمعه الذي يُغزى ويُسلب فلا ينتمي له أحد، وهذه هي حالة البرجوازي الإيطالي الذي وجد من الصعب الائتلاف والتلاؤم مع الواقع الذي لا يقر له بمطامحه، ولا يحترم نزواته، فخرج على هذا الواقع من أجل تقويضه.

وكتب بافيزي رواية (الرفيق) عام 1947 تحت تأثير انتمائه للحزب الشيوعي الإيطالي، الذي حاول من خلاله أن يخرج من انكماشه الداخلي، إلا أن الرواية لم تلق أي نجاح، بل إن رفاقه في الحزب اتهموه بالانحطاط والتردي مما سبب له أسى كبيراً، إضافة إلى أساه الذي حمله في داخل نفسه. وقبل أن يضع بافيزي حداً لحياته، اختتم روايته (القمر ونار الحطب) عام 1950، التي تحكي قصة الحرب والعنف والحنين إلى الموت الذي ينبعث عنده من الغضب والاستسلام وشيخوخة الروح في صباها، كما تستعرض الرواية التباين بين الريف والمدينة، وهو الموضوع الذي ظل عزيزاً إلى قلبه. والرواية يعتبرها بعضهم بأنها أهم روايات بافيزي التي تحمل حنينه للموت الذي يأتي كرد فعل يرتبط بمصيره الشخصي على أنه النهاية التي كان ينتظرها كقدر يتوّج به حياته وتوقّف زمنه.

وكتب بافيزي قبل موته مجموعة قصص أسماها (ليلة عيد)، وصدر له بعد وفاته مؤلّفه الشهير (الأدب الأمريكي ومباحث أخرى)، ومن ثم ديوانه الشعري (سيأتي الموت ليأخذ عينيك)، و(العيش)، ورواية (نار كبيرة).

كما نُشر له أحد مؤلفاته حين كان شاباً وعنوانه (تشاومزينو)، وأخيراً مجلّد (رسائل) الذي أشرف على نشره الكاتب الإيطالي الراحل (إيتالو كالفينو)، كما صدرت ترجماته لأشعار الشاعر الأمريكي (والت ويتمان).

ولبافيزي كذلك عدة ترجمات من اللغة اليونانية للأشعار والأساطير القديمة، كان قد أنجزها ما بين عامي 1947– 1948م، إلا أنها نشرت عام 1981.

واتسم شعر بافيزي بالقصصية والغنائية الحزينة التي تقوم على مزيج من الإيقاع: خارجي

متمثّل ببناء الحكاية وأسلوب عرضها، وداخلي يتمثل بصوت العاطفة المفجع، كما تتصف معظم قصائده بالغنائية العالية ولو أنها تنزع في الغالب نحو الخلاص وتتبع أسلوب الحكواتي السردي الذي يصاحبه الحوار والترميز، وقصيدة (الشبح) هي نموذج واضح.

وتمتاز قصائد بافيزي الأخيرة، إضافة إلى ما ذكرناه، بقوة البناء اللغوي وتكتسب جديتها من داخل موضوعها وانبثاقها، ومن خلال قدرتها على التعبير بكافة الصور، وقد سهل ذلك قدرته الروائية وحجم اطلاعه على حركة الشعر العالمي، مما جعل قصيدته مركزة ومكتنزة وبعيدة عن الترهل، وغير مثقلة بالصفات والتعابير الجاهزة كما هو الحال عند بعض الشعراء الإيطاليين المعاصرين، فقصيدته تغور نحو العمق، كما إنها تتقصّى العرض، وهي قريبة في كل ما ذكرناه إلى الشعر العربي الحديث منها إلى الشعر الأوروبي.

كتاب (حوارات مع ليوكو)، الذي نشر في عام 1947، واعتبره الشاعر أهم كتاب يرحل في عمق الأسطورة وفكّ رموزها الساحرة، يتألف من ستة وعشرين حواراً، تغوص في أعماق الأساطير اليونانية القديمة، من أوديب وتيريزيا إلى كاليبزبو وأوديسيوس، إيروس وتاناتوس، إلى أخيل وبيتروكلس... إلخ. إنها حوارات تمثل دعوة شعرية لمناقشة العلاقة بين الإنسان والطبيعة، الإنسان ومصيره المجهول. فالشاعر من خلال هذه الحوارات التي كتبها بلغة مبسّطة، يبحر في أسرار الموت والحياة، أسرار الألم والمعاناة، والحزن والفرح، الشجاعة والانكسار، من خلال الأسطورة القديمة، كأنها مناجاة لحياة الإنسان المعاصر.

نماذج من قصائد الشاعر

يقول في قصيدة بعنوان:

(إلى: ت)

وأنتِ الحبُ أيضاً
وإنك في الدم والتراب
كالآخرين تسيرين
كمن لا ينفصل عن باب منزله
وتنظرين كمن يترقب
لكنه لا يرى.. أنتِ من التراب
يتألم بصمت
ترتعشين وتتعبين
ولديك كلام.. تسيرين
مترقبة.. والحب
هو دمك.. لا سواه.

●●

وفي مقطع آخر من قصيدة له تحت عنوان:

(قصيدتان بدون عنوان)

الصباحات تمر صاخبةً
مهجورةً.. كذلك عيناك
كانتا تتفتحان حيناً.. والصباح
يمضي بطيئاً
كأنه نهرٌ
من شعاع عينيك لا يتحرك
يلفه السكون
وكنتِ تصمتين
لكن الأشياء
كانت تحيا تحت عينيك.

●●

قصيدة (ترويض)

في الفجر تبدأ الأعمال، لكن قبل ذلك تجدنا نلتقي بأنفسنا
حيث الناس هجروا الطرقات، كلٌّ بوحدته وتعاسته يتذكر
ليكتشف ندرة المارة، كلٌّ يحلم مع نفسه، مدركاً،
كيف تضيء العيونُ في الفجر.
حينما يقترب الصباح، فجأة تجد الدهشة،
حيث تتوقف الحركة
لكننا لسنا بعد وحيدين، ولا أحد يرهقه النعاس
بهدوء نتأمل أشكال النهار حتى تولد الابتسامات،
في عودة الشمس كلنا مقتنعون، ومرت أفكار أقل وضوحاً
سخرية تفاجئنا، ونعاود تحدينا إليها
لدى الشغيلة والمتهكّمين تجد المدن الصافية، لا شيء يحير الصباح
كل شيء يمكنه الحدوث، ويكفي الانتباه إليه أثناء العمل
الصبايا الهاربات لا ينجزن شيئاً، يقطعن الطرقات
وأخريات يركضن، أوراق الساحات العامرة بالأشجار
تملأ الشوارع ظلالاً، والأعشاب بين البيوت ثابتة
على ضفاف الأنهار ينساب الفيء تحت الشمس
المدينة تجعلنا نرفع الرؤوس
ونفكر، رغم إدراكها بخضوعنا إليها.

●●

قصيدة (محتضناً عينيك يأتي الموت)

الأرضَ والموتَ تكونين
فُصولك الظلامُ والصمتُ
لا يحيا بعدك شيءٌ،
اندثر منذ فجر بعيد متى تبدين يقظةً
الألم وحده أنتِ،
وهناك في أعماق عينيك في خريطة الدماء ينزوي
دون انتباهك
مثلما حجرٌ تقطعه الدهورُ تحييه
كما الأرض القاسية
ترتديك الأحلامُ
وتجهلين الهزات الفريدة
يرعبك الألمُ
ويطوقك مثل ماء البحيرات
دوائر على المياه
تتركينها تُمحى
الأرضَ والموتَ
تكونين.

●●

قصيدة (أحداث)

على السقوف.. فوق التلال السوداء
ينبلجُ الفجرُ
القططُ الناعسةُ وفتى يتكورُ تحت سقف السماء
تتشظى مناكبه بين الأشجار تتصاعد ريحُ الفييرا
الغيومُ الحمراءُ في الأعالي
فاترةٌ تنحدر ببطء
تحت في الأزقة تَقضمُ الجراء.. تتشمم الفتى
لكن المواء الخافت يصعد الذُرا.. وتائه مّا مكسور الجناح
في المساء تصدحُ الجنادبُ.. والنجومُ تشتعل في الريح
في نقاوة الفجر.. تُضيء حتى عيونُ القطط في نشوة الحب
يتحسسها الفتى.. أنثى القط تبكي ذكرها
وحتى ذُرا الأشجار أو الغيوم الحمراء لا تعني شيئاً لها
تبكي السماوات العارية..كما لو كان مساء الآن
يتحسس الفتى مندهشاً لمراهقة القطط الودودة
الجِراء تقضمُ طعامها ويرتجف الجسدُ.. وليس بعد من فجر
تلك الحيوات المهترئة.. في المراعي تجمع الضوء والندى
وتعوي الكلابُ بلا انقطاع.. يجري النهرُ مطمئناً.. وتستقبله الطيورُ
بين الغيوم الحمراء.. تتجمع في الانحدارات منتشية لتكشفه
صحارى.

موسى الخميسي

روما: خريف 2009

مقدمة

نرغب بالوصول إلى الأسطورة، ولكننا واثقون من أن الأسطورة هي اللغة. إنها وسيلة تعبيرية، يعني ليست شيئاً متعسفاً، بل هي الرمز الحيّ وإليه تنتسب، كما يحصل في كل اللغات، خلاصة المضمون الذي لا يمكن لأحد أن يتجاهل الخضوع له.

حينما نكرّر اسماً، حركةً، أو حين نتحاور في موضوع أسطوري، عندما نعبر ولو بجملة لا غير، بالقليل من التوليفات، حينما ننجز أمراً مفهوماً وبليغاً، فلنقل مقطعاً حقيقياً يديم ويغذي لدينا هاجس العشق أو حالة إنسانية خاصة، فكل هذا يتم عبر تركيز معقّد. ومن ثم فإن هذا الاسم، تلك الحركة، كنا قد ألفْناها منذ فجر الطفولة، وعلى الخصوص في أيام الدراسة بصورة أفضل. إن القلق يصبح أكثر وعياً وجزماً حين يثير فينا شيئاً مألوفاً.

هكذا اقتربنا لنجهّز أنفسنا بأساطير هيلينية أثارت صدى شعبياً عريقاً، وهذا يكمن في سر تقبلنا لها القوي والتلقائي. إننا نرتعب من كل ما لا حدود له. تخيفنا القدرية الأثيرية ونحاول بجهدنا، حتى بصورة ملموسة أيضاً، أن نحدّد أنفسنا، فنحيط الأشياء بما يؤطرها، ونصرّ على الوصول إلى خاتمة حاضرة.

وكلنا يعلم أن كشفاً عظيماً لا يمكنه أن يحصل إلاّ نتيجة إصرار بلا حدود في التصدي للمصاعب نفسها. ليس ثمة ما يربطنا بالعابرين، التجريبيين، والمجازفين. نعرف أن أكثر الوسائل التي يمكن أن تدهشنا تكمن في تركيزنا على الموضوع نفسه وباستمرار. في لحظة ما مناسبة سيبدو لنا هذا الموضوع بمثابة معجزة وكأننا لم نلحظه من قبل إطلاقاً.

تشيزري بافيزي

السحـــابة

إن يكن «إسيون» قد انتهى في «تارتارو» بسبب جسارته، فهذا أمر محتمل. بينما ليس حقيقياً كما يشاع من أن «السنطورات» تتوالد من السحب، فهذه «السنطورات» كانت قبل هذا شعباً عند زواج ابن إسيون. أما اللاتينيون والسنطوريون فينحدرون من ذلك العالم الخرافي الذي اعتادت فيه الطبيعة على تداخلها المتنوع، وكانت تلك الأشباح تمرّ وبمواجهتها كان على «الأولمب» أن يثور غيظاً.

(حوار بين السحابة وإسيون)

السحابة: ثمة قانون، يا إسيون، ينبغي الإذعان له.

إسيون: هنا في الأعالي لا يصلنا القانون، أيتها السحابة. هذا القانون هو السحابة، العاصفة، والظلام. وحين يكون النهار صافياً وأنت تقتربين خفيفة من الصخور، سيكون جميلاً التفكير في هذا.

السحابة: ثمة قانون، يا إسيون، في البداية لم يكن. والسحب أعطته في ما بعد يداً عصية التصالح.

إسيون: هنا لا تصل هذه اليد. أنت ذاتك، حين يمنحنا النهار الآن رونقه أراك تفرحين، وحينما تعتم السماء وتزمجر الرياح، فما الذي تعنيه اليد التي تصفعنا كقطرات المطر؟ هذا كان يحدث في الأزمنة الغابرة التي لم تعرف الأسياد. لا شيء تغير في أعالي الجبال. ونحن شرهون لكل هذا.

السحابة: أشياء كثيرة تغيرت فوق الجبال، يعرف ذلك «البيليو»، «الآوس» و«الأولمب». وتعرف ذلك جبال أكثر قدماً.

إسيون: وما الذي تغير، أيتها السحابة، ما الذي تغير فوق تلك الجبال؟

السحابة: لا الشمس ولا المياه، يا إسيون. ما تغير هو نصيب الإنسان، ثمة أشباح، إنه المدى الذي فُرض عليكم أيها البشر. فلم تعد المياه رهن إشارتكم، لا الرياح، ولا الصخور لم تعد رهن إشارتكم والسحابة أيضاً، فلستم قادرين على جذبها إليكم كي تتكاثروا وتعيشوا. إن أيادي أخي هي التي تمسك العالم اليوم. ثمة قانون، يا إسيون.

إسيون: أي قانون؟

السحابة: تعرفه قبل الآن، إنه النصيب، فلست بمطلق الحدود...

إسيون: إن نصيبي أمسكه في يدي، أيتها السحابة، فماذا تغير؟ أيمكن لهؤلاء الأسياد الجدد أن يعرقلوا ولعي بالألعاب؟ هل سيمنعوني من النزول إلى الوادي أو أن

أحطم ظهر عدوي؟ هل سيكونون هم بالذات، أعني أولئك الأسياد، من سيرهبهم.. التعب والموت؟

السحابة: ليست هذه هي القضية يا إسيون. كل هذا يمكنك أن تقوم به وأشياء أخرى أكثر. ولكن لم يعد بإمكانك الامتزاج بنا نحن السحب، عرائس المروج والجبال. نحن بنات الرياح، آلهة الأرض نعرف أن نصيبنا قد تغير.

إسيون: ماذا تقصدين بـ«لم يعد بإمكانك» يا سحابة؟

السحابة: أقصد أنه حينما ستريد تنفيذ ما تقول سيكون عليك حتماً أن تقوم بأشياء مرعبة. كما يحدث لمن يحاول مداعبة رفيقه فيؤذيه أو يتلقى الأذى منه.

إسيون: لا أفهم ما تقولينه. هل ستمتنعين عن المجيء هنا إلى الجبل، أتخافين مني؟

السحابة: سأحضر إلى الجبل، وسأمضي لأي مكان أريد. فأنت أعجز من أن توقفني، يا إسيون. لا يمكنك أن تقف بمعاكسة الماء، أو الرياح. لكن يتحتم عليك أن تحني هامتك. هكذا فقط يمكنك الاحتفاظ بنصيبك.

إسيون: أنتِ خائفة يا سحابة.

السحابة: أجل أنا خائفة. كنت رأيت ذُرا الجبال، ولم يكن هذا ليخيفني، لكن خوفي ليس على نفسي يا إسيون، فأنا لا أتألم. أخاف عليكم يا من ليس لكم سوى أن تكونوا من البشر. هذه الجبال التي كنتم تعبرونها وأنتم سادتها، ها هي ترعبكم اليوم وتعكّر عشقكم للحرية. ولتعلم بأننا كلنا نخضع إلى يد قاهرة. حيث يختفي أبناء المياه والرياح والسناطير خلف الشلالات، ولا يمكنك أن تجهل أنها هي الأشباح.

إسيون: ومن يقول هذا؟

السحابة: لا تتحد اليد، يا إسيون، فهي النصيب. في الماضي شاهدت أكثر جسارة منهم ومن نظرائك. كان ثمة من يتسلق الجبال والصخور ولم يكن ليموت، لتفهمني، يا إسيون! الموت الذي كان رمز شجاعتك، يمكنهم منعه عنكم معتبرين ذلك خيراً. أتعرف هذا أيضاً؟

إسيون: سمعتك تقولين مثل هذا القول في مرات عديدة سابقة، فماذا يعني؟ نحن سنحيا لزمن أطول.

السحابة: أنت تلعب وتجهل أولئك السرمديين.

إسيون: أتمنى التعرف عليهم يا سحابة.

السحابة: أتعتقد يا إسيون أن حضورهم يشبه حضورنا؟ أو يشبه حضور الليل، الأرض، والإله «بان» العظيم؟ ما زلت حتى الآن مراهقاً ولكنك جئت إلى الدنيا تحت رحمة النصيب القديم. ليس ما تراه الآن هو الأشباح، إنما الرفاق ولا غير. وبالنسبة لك فإن الموت شيء يحدث، مثلما يعقب الليل النهار. أنت واحد منا، يا إسيون، فكلك يكمن في الحركة التي تقوم بها. أما لأولئك، أعني السرمديين، فإن لحركاتك معنى يتضاعف على الدوام. هم يتفحصون كل شيء من بعيد بعيونهم، بأنوفهم، بشفاههم؟ إنهم سرمديون ولا يمكنهم أن يحيوا وحيدين. إن ما تفعله أو تتحاشاه، ما تقوله، وتبحث عنه، كله عندهم مرفوض أو مقبول ولا غير. وإذا أنت لم تجار أذواقهم، وإذا أزعجتهم في «أولمبياهم» دون أن تقصد ذلك فسوف يصبون على جسدك الرصاص، ويحكمون عليك بالموت، الموت الذي عرفوه، الذي يترك طعماً مريراً يستمر ويتواصل ويخلف رائحة.

إسيون: على أية حال ما زال هناك متسعٌ من الوقت.

السحابة: لا، يا إسيون. سيجعلون منك بعد الموت ظلاً، ولكنه ظل يتمنى الحياة مرة أخرى، ولن يكون له أن يموت بعدها.

إسيون: أشاهدت أنتِ هذه الآلهة؟

السحابة: أجل شاهدتها. آه يا إسيون، فأنت لا تعرف ما يعنيه سؤالك!

إسيون: أنا كذلك شاهدتها، يا سحابة، ولم تكن مرعبة هكذا.

السحابة: كنت أعرف أنك شاهدت تلك الآلهة. إن نصيبك قد تقرر. من رأيت؟ كيف يمكنني أن أعرف؟

إسيون: كان فتى يعبر الغابة وأقدامه عارية، تجاوزني دون أن ينطق بكلمة، وتوارى على الفور وراء صخرة. بحثت عنه طويلاً، لم أكن أعرف من يكون، فالدهشة خذلتني. بدا مخلوقاً مثل جسدك.

السحابة: أشاهدته وحده؟

إسيون: بعد ذلك شاهدته في الحلم مع أرباب آخرين، وبدا لي وكأنني أتواجد بينهم، أتكلم وأمزح وأضحك معهم. تحدثوا بأمور شبيهة بما تقولين، لكن دونما خوف، دون أن يرتجفوا مثلك تحدثنا سوية عن القدر وعن الموت، تحدثنا عن «الأولمب»، سخرنا من أشباح مضحكة.

السحابة: آه إسيون، إن قدرك قد تقرر. ها أنت قد عرفت الآن ما الذي تغير فوق الجبال. وحتى أنت أيضاً قد تغيرت، وتعتقد أنك شيء أكبر من الإنسان.

إسيون: أقول لك، يا سحابة، بأنك مثلهم. على الأقل حتى في الحلم، لماذا لا ينبغي لهم أن يعجبوني؟

السحابة: هذا جنون لا يمكنك التوقف عند الأحلام. ستصعد حيث يتواجدون، ستقوم بأشياء مرعبة، بعدها يأتي ذلك الموت.

إسيون: هل لك أن تخبريني بأسماء كل الآلهة؟

السحابة: أرأيت، لم يعد الحلم وحده يكفيك، وهل تتصور أن حلمك هو الحقيقة؟ أنا أقترح عليك، يا إسيون، ألاّ تصعد إلى القمة. لتفكر في الأشباح وفي المذنبين! فمن هؤلاء لا يخرج شيء.

إسيون: شاهدت حلماً آخر هذه الليلة. كنتِ أنتِ أيضاً موجودة يا سحابة، وصارعنا معاً عدة سنطورات. كان لي ابن هو كذلك ابن إحدى الآلهات، لا أعرف من تكون. بدا لي وكأنه ذلك الفتى الذي عبر الغابة، كان أقوى مني، يا سحابة. السنطورات هربت، وكان الجبل نصيبنا. إنك أنتِ كنتِ تضحكين، أيتها السحابة. أرأيت، حتى في الحلم، ترين أن نصيبي لا بأس به.

السحابة: نصيبك مكتوب. لا ترتفع العيون عبثاً صوب الآلهة.

إسيون: أليس عبثاً أن تحدق العيون بشجرة البلّوط، سيدة الذُرا؟

السحابة: لا يهم، لا هذا ولا ذاك. لكن لا تخف، سأكون معك حتى النهاية.

●●●

الشـــــبح

كانت الفتيات اليونانيات يمضين مقتنعات ليمُتن في الشرق متوهجات. هنا كانت تمخر شهامتهن الحقيقية بحراً قاسي الأهوال حدَّ الدهشة، ولم يتمكّن جميعهن من أن يحتفظن بأرواحهن فيه بغير اللجوء إلى الأسماء. من ناحية أخرى فإن الصلبان كانت أكثر من سبعة. عن الأحزان التي حجبتها في السنوات الأخيرة حادثة مقتل الشبح، وعن ابن أخ «ساربيدونتي» الذي مات وهو في ريعان الشباب داخل حصان طروادة، يروي لنا هوميروس ذلك في الجزء السادس من الإلياذة.

(حوار بين أبولكوس وساربيدونتي)

أبولكوس: مَنْ أنتَ أيها الفتى؟

ساربيدونتي: لقد شاهدت أباك يا أبولكوس. إنه لا يريد العودة، يعبر القرى مهتاجاً، ولا يبالي بنفسه، ولا يغتسل، وقد صار عجوزاً وشحاذاً.

أبولكوس: وماذا كان القرويون يقولون عنه؟

ساربيدونتي: إن حقل «إليوس» هو اليوم خراب، أيها العم. فليس هناك سوى قصب البردي والأوحال. وعند منطقة «الكسوانتو» حيث سألت عنه، لم يشاهده أحد منذ عدة أيام.

أبولكوس: وهو، ماذا يقول؟

ساربيدونتي: لا يتذكرنا، ولا حتى بقادر على أن يميز البيوت. وحين يلتقي بأحد يشرع في الحديث عن «سوليمي»، «كلاوكو»، «سيزيف»، و«الشبح». وحين لمحني قال: «أيها الفتى، لو كنت في سنّك، لألقيت بنفسي في البحر قبل أن أراك»، ولم يكن ليكشف عن روح حيوية واعدة. راح يتحدث إليّ قائلا: «أيها الفتى أنت طيب ورحيم فلتتوقف عن الحياة».

أبولكوس: أحقاً كان يتذمر ويشكو بهذه الصورة؟

ساربيدونتي: كان يقول أشياء تنذر بالوعيد والويل، ويدعو الآلهة أن تقتدي به. كان يتجول ليل نهار. لكن لم يكن يشتم ويبكي سوى الأموات أو الآلهة.

أبولكوس: «كلاوكو» و«سيزيف» أهذا ما قلته؟

ساربيدونتي: يقول بأنهما قد عوقبا على خيانتهما. ولماذا الانتظار حتى يصبحا هرمين، ألكي يتفاجأ بهما حزينين ومقهورين؟ يقول إن «بيلّرفونتي» كان رحيماً وعادلاً منذ أن جرت في عضلاته الدماء. والآن، وبينما يعاني الشيخوخة والوحدة ها هي الآلهة تخذله وهو في هذه الحال.

أبولكوس: شيء غريب أن تعجب لمثل هذا الأمر، وتتهم الآلهة بشيء يتعلق بالأحياء. لكن

ما الذي يجمعه مع أولئك الموتى وهو الذي كان لي على صواب دائماً؟

ساربيدونتي: لتصغ، يا أبولكوس... حتى أنا كنت قد تساءلت، وأنا أحدق في تلك العيون الساهمة، هل أتحدث حقاً مع الرجل الذي كان ذات يوم «بيلّرفونتي». لقد وقع لأبيك شيء ما، فهو ليس عجوزاً وحسب. ولا حزيناً ووحيداً. إنما فوق كل هذا كان أبوك يخيف حتى الأشباح.

أبولكوس: إنك مجنون، يا ساربيدونتي؟

ساربيدونتي: إن أباك يزعم عدم عدالة الأرباب الذين طلبوا منه أن يغتال الشبح. فمنذ ذلك اليوم كان يكرر القول: «حين تلطخت يداي بدماء الشبح، لم تعد لي حياة حقيقية». بحثت عن الأعداء، سيطرت على الأمازون، أقمت مذابح «سوليمي»، حكمت مناطق «أليتشي» وزرعت الحدائق. لكن ما كل هذا؟ أين الشبح الآخر؟ أين هي قوة الذراع التي اغتالته؟ وحتى «سيزيف» ووالدي «كلاوكو» كانا يافعين وعادلين، بعدها هرم كلاهما، وخذلتهما الآلهة، إذ تركتهما يتوحشان ويموتان. من كان قد واجه الشبح ذات يوم فكيف له أن يخضع للموت؟ هكذا يقول أبوك، الذي كان يوماً يُدعى بـ«بيلّرفونتي».

أبولكوس: «سيزيف» الذي سحر لبّ الغلام «تاناتوس»، و«كلاوكو» الذي كان يطعم الخيول سوية مع الرجال الأحياء، هما انتسابنا الذي تجاوز الحدود. لكن هؤلاء رجال قدامى ينحدرون من الحقبة الشبحية. فالشبح هو آخر العفاريت الذين شاهدوا أرضنا عادلة ورحيمة.

ساربيدونتي: أتعتقد بذلك أنت يا أبولكوس؟ أتعتقد أن مقتل الشبح كان يكفي؟ «أبانا» –يمكنني أن أدعوه هكذا– ينبغي أن يعرف ذلك. ومن المؤلم باعتباره رباً –إلهاً طاعناً في السنّ وعاجزاً– أن يقطع القرى والأوحال وهو يتكلم عن هؤلاء الموتى.

أبولكوس: لكن أي شيء كان ينقصه؟

ساربيدونتي: تنقصه الذراع التي اغتال بها الشبح. تنقصه شجاعة «كلاوكو» و«سيزيف»،

الآن بالتحديد حيث وصل حدوده مثلما حصل لآبائه. إن شجاعتكم تنقلب ضدهم، ويدركون أن ليس ثمة شبح آخر ينتظرهم وسط الصخور، يدعو إلى النزول.

أبولكوس: أنا ابنه، يا ساربيدونتي، ومع ذلك فلا أفهم هذه الأشياء، فوق الأرض التي أصبحت الآن رحيمة، ينبغي أن نهرم بلا متاعب. عند صبي، يكاد يكون غلاماً، كما أنت عليه يا ساربيدونتي، يمكنني أن أتفهم توهّج الدماء، ولكن عند صبي فقط، لذا ولأسباب وجيهة أدعوك ألاّ تقف ضد الآلهة.

ساربيدونتي: لكنه كان يعرف ماذا يعني أن يكون صبياً أو أن يكون عجوزاً. إذ شاهد قبل ذلك أياماً أخرى. شاهد الآلهة، كما نشاهد بعضنا بعضاً الآن. فقد كان يروي أشياء مرعبة.

أبولكوس: أكان يمكنك أن تصغي إليه؟

ساربيدونتي: آه يا أبولكوس، ومن ذا الذي لا يرغب بالإصغاء إليه؟ «بيلّرفونتي» شاهد أشياء لا تحدث بسهولة.

أبولكوس: أعرف ذلك يا ساربيدونتي، ومع هذا فقد مضى العالم الذي تقصد وحينما كنت طفلاً سمعته يرويها لي أيضاً.

ساربيدونتي: آنذاك وحسب لم يكن يتحدث إلى الأموات. في ذلك الزمن كانت الفراشات. أما اليوم فالأقدار التي تصيبه تصبح من نصيبه.

أبولكوس: وماذا كان يروي؟

ساربيدونتي: عن أمور يعرفها. لكنك تجهل كيف كانت نظرته الشاردة، وبرودته المخيفة، برودة من لم يعد شيئاً مذكوراً ومع ذلك يعرف كل شيء. كان يروي حكايات «ليديا» و«فريجا»، إنها حكايات قديمة، تخلو من العدالة والرحمة. أتعرف حكاية «سلينو» الذي هزمه أحد الأرباب فوق جبل «سيلين»، وقتله بعد أن مثّل به مثلما يقتل الجزار الماعز، ففي المغارة يتفجر الآن نبع كأنه دمه؟ كان يروي حكاية الأم التي تحجرت وتحولت إلى صخرة باكية، ولا أعرف إلى

الآن كيف أن إحدى الآلهة قد راق لها أن تقتل تلك الأم أطفالها واحداً بعد الآخر برميهم بالسهام؟ أهي حكاية «أراكنا» التي ارتعبت لشدة حقدها على «أثينا» ومن ثم أصبحت ملكة؟ إنها أشياء تحدث، تخلقها الآلهة.

أبولكوس: دعك من هذا، وماذا يهم؟ إن التفكير في مثل هذه الأمور شيء لا نفع له. فمن تلك الأقدار لم يتبق شيء.

ساربيدونتي: يبقى التيار، الصخور، الرعب. تبقى الأحلام. «بيلّرفونتي» لا يقوى على أن يخطو خطوة دون أن يتعثر بإحدى الجثث، ويثير أحقاد الآخرين. يا لبقع الدماء، فمنذ الأزمنة الغابرة التي شهدت كل شيء، حيث لم تكن وقتها أحلام، كانت ذراعه في تلك الأزمنة تشتد على العالم وتقتل.

أبولكوس: على أية حال، لقد كان هو أيضاً قاسياً.

ساربيدونتي: كان عادلاً ورحيماً، فقد اغتال الشبح. والآن حيث يحيا ضعيفاً وعاجزاً، نرى الآلهة تهجره.

أبولكوس: أبسبب هذا يهيم على وجهه في الأرياف؟

ساربيدونتي: إنه ابن «كلاوكو» و«سيزيف» ويخاف قسوة الآلهة، إنه يشعر بالوحشة ولا يريد الموت. قال لي: «أيها الفتى، هذه هي الخديعة والخيانة، في البداية يسلبونك القوة وبعدها يزدرونك حين تصبح عديم الجدوى، وحين تريد أن تحيا عليك أن تتوقف عن الحياة...».

أبولكوس: ولماذا لا يقتل من يعرف كل هذه الأشياء؟

ساربيدونتي: لا أحد يقتله، فالموت نصيب لا يمكن سوى احتضانه يا أبولكوس.

●●●

العميـــان

لا يوجد حدث في مملكة طيبة يجهله الأعمى العرّاف «تيريزيا». بعد هذا اللقاء ابتدأت مصائب «أوديب». في اللحظة التي تبصر عيناه النور من جديد، يقوم «أوديب» ذاته باقتلاعهما بتأثير الرعب.

(حوار بين أوديب وتيريزيا)

أوديب: أيها الشيخ تيريزيا، هل ينبغي أن أصدق ما يقوله الناس هنا في مدينة طيبة، بأن الآلهة أعمت بصيرتك بسبب الحسد الذي تكنه لك؟

تيريزيا: إن كان كل شيء حقاً يأتي منها فينبغي أن تصدق ما يقولون.

أوديب: وأنت ماذا تقول؟

تيريزيا: أقول إنهم يتحدثون كثيراً عن الآلهة. إن تكن ضريراً فهذا ليس بختاً سيئاً يختلف عن نصيبك حين تحيا. شاهدت دائماً القدر الأعمى يصيب ضحاياه حيث كان ينبغي أن يصيب.

أوديب: إذن، فماذا تفعل لنا الآلهة؟

تيريزيا: العالم أقدم من تلك الآلهة. فقبلها كان ثمة رب أوحد يعمر الفضاءات، عندما لم يولد الزمن بعد، الأشياء ذاتها هي التي كانت تحكم آنذاك. حدثت أمور كثيرة، أما الآن وعن طريق الآلهة، فكل شيء مخلوق من كلمات، وثمة ذات الخديعة، والتهديد. لكن الآلهة بإمكانها أن تؤذي، بتقريبها للأشياء أو بإبعادها. فلا تلمسها، لا تغيّرها. لقد وصلت هذه الآلهة بعد طول انتظار.

أوديب: أأنت بالذات، أيها الكاهن، من يقول بهذا؟

تيريزيا: إذا لم تعرف هذا على الأقل لن تكون يوماً كاهناً. خذ مثلاً، صبي يستحم في «الأوسوبو»، في صباح صيفي. يمضي الصبي إلى النهر، يغادره، ويعود إليه ثانية، ويروح يغطس في النهر عدة مرات مبتهجاً. ثم يحدث أن يصيب ذلك الصبي الإعياء وهو في النهر فيغرق. ما دور الآلهة في ما حدث؟ أينبغي أن نلقي باللوم على الآلهة أو أن نعتبر بهجته وهو يلامس المياه من صنع الآلهة؟ لا هذا ولا ذاك. فقد حدث شيء، لا هو الخير ولا هو الشر، شيء بلا اسم، وستمنحه الآلهة اسماً في ما بعد.

أوديب: وإعطاء الاسم، وتوضيح الأشياء، أيبدو لك بلا قيمة يا تيريزيا؟

تيريزيا: لا تزال إلى الآن صبياً يا أوديب، وبما أن الآلهة هي الأخرى لا تزال فتية، فلك وحدك أن توضح الأشياء وتسميها. إنك لا تعرف إلى حد الآن أن تحت الأرض ثمة صخرة عظيمة، وأن السماء الأكثر زرقة هي تلك الأكثر خواء. لأمثالي من العميان، كل الأشياء ليست سوى صنعة.

أوديب: ولكنك عشت كذلك تجارب الآلهة. الفصول، الزمن، اللذات، والمشقات الإنسانية قد شغلتك طويلاً. يتحدث عنك الآخرون بأكثر من حكاية، كما لو كنت أحد الآلهة. إن شيئاً بمثل هذه الغرابة، بمثل هذا الشذوذ، ينبغي أيضاً أن يتخذ معنى، وحبذا لو يكون معنى تلك السحابات في السماء.

تيريزيا: لقد عشت طويلاً، ممتلئاً لدرجة أن أية حكاية أصغي إليها تبدو لي وكأنها حكايتي. أي معنى تقصد بقولك سحابات في السماء؟

أوديب: أعني الحضور في الفراغ.

تيريزيا: لكن ما هي الحكاية التي تعتقد أن لها معنى؟

أوديب: أيها الشيخ تيريزيا، أكنت يوماً ما تكونه الآن؟

تيريزيا: آه، ها أنا أسرع بك نحو حكاية الأفاعي حينما كنت وقتها امرأة واستمر الأمر معي لسبع سنوات. حسناً ما الذي تجده في هذه الحكاية؟

أوديب: لقد حدث لك هذا وأنت أعلم. لكن بدون الرب لا تحدث هذه الأشياء.

تيريزيا: أتعتقد أنت في هذا؟ كل شيء يمكن أن يحدث فوق الأرض. ليس هناك شيء غير معتاد. في تلك السنوات شعرت بقرف من الجنس، بدا لي وكأن روحي، مقدساتي، سجيتي، كلها قد أصابتها السموم. حدث ذلك عندما حدقت بزوجين من الأفاعي كانا يلتذّان وهما يعظان بعضهما فوق الطحالب، تعذّر أن أحتفظ بهدوئي، فقمت بضربهما بعصاي. وبعدها بقليل تحولت إلى امرأة، ولسنوات تعين على كبريائي احتمال العذاب. إن أشياء العالم هي الصخور يا أوديب.

أوديب: لكن أحقاً هكذا جنس المرأة على هذه الوضاعة؟

تيريزيا: لا شيء من هذا إطلاقاً. فليس ثمة أشياء من هذا سوى عند الآلهة. ثمة منغصات، تفاهات وخدع تتبدد حين ملامستها للصخرة. ها هنا كانت الصخرة هي قوة الجنس، تلك القدرة على التواجد في كل مكان، والحضور الهائل تحت كل الأشكال. وهكذا تحولت إلى امرأة بعد أن كنت رجلاً، وجرى العكس (بعد سبع سنوات شاهدت مشهد الأفاعي)، وذلك الذي لم أرد أن أتقبله روحياً حدث لي بالعنف أو بالشهوة، فأنا رجل مرذول وامرأة مدنسة، تحملت هذا الحدث كامرأة، وأكرهت عليه كرجل، وعرفت كل ضربٍ من الجنس: حتى وصل بي الأمر لكي أجري وراء الرجال كرجل وأتابع النساء كامرأة.

أوديب: على كل حال، لتعرف أن رباً قد علمك أشياء كثيرة.

تيريزيا: ليس ثمة شيء فوق الجنس. إنها الصخرة، أقولها لك. أوديب: إن العديد من الآلهة ليست سوى وحوش، لكن الأفعى هي أقدم الآلهة جميعاً. لم يكن أي شيء في نهاراتي عبثاً حسب ما كنت أرى.

تيريزيا: لست الوحيد يا أوديب لتصدقني! لكن الصخرة لا يمكن الوصول إليها بالكلمات. إن الآلهة تحميك. وأنا كذلك أتحدث إليك ككهل، ووحده الأعمى من يعرف الظلال. يُخيّل إليَّ كأنني أحيا خارج الزمن، وكأنني قد عشت دهراً، ولا أصدق بعد ما تقوله الأيام. حتى في أعماقي ثمة شيء يفرح ويدمي.

أوديب: كنت تقول إن هذا الشيء كان رباً. فلماذا لا تجرب يا تيريزيا الطيب أن تصلي إليه؟

تيريزيا: كنا نصلي لهذا الرب أو ذاك، لكن ما يحدث ليس له مسميات. الصبي الذي غرق في صباح صيفي، ماذا كان يعرف عن الآلهة؟ ما الذي تعني له الصلاة؟ ثمة أفعى هائلة في كل يوم من أيام الحياة، تختفي وتحدق بنا. يا أوديب، ألم

تسأل ذات يوم لماذا يفقد التعساء البصر حين يهرمون؟

أوديب: أصلي إلى الآلهة لكي لا يحدث هذا.

●●●

المُهَـرُ

ليست فرصة مناسبة للحديث عن «هارمتي»، ذلك الرب الغامض بين الحياة والموت، بين الجنس والروح، بين «التيتاني» وآلهة «الأولمب». في حين يستحق الأمر الحديث عن معنى مّا حصل لذلك الطبيب الطيب «أسكليبو» الذي يخرج من عالم بهيمي ممسوخ وإلهي.

(حوار بين هارميتي كوتينو والسنطور كيروني)

هارميتي: إن الرب يدعوك أن تأخذ على عاتقك هذا الطفل، يا كيروني. أنت تعرف قبل هذا موتة «كورونيدا» الجميلة. فقد استلّه الرب من بين اللّهب بالأيدي السرمدية، حيث كان في حضن أمه. أنا كنتُ قد دعيت حيث الجسد الحزين كان يضطرم ملتهباً. فالشعر التهب مثلما تلتهم النار تبن حبوب القمح. لكن الطفل لم يمهلني، إذ اختفى في مقبرة «آدا» بعد أن تخطّى اللهب «قافزاً».

كيروني: وهل صار فرساً بعد العبور؟

هارميتي: هكذا أعتقد. لكن اللهب والنواصي يتشابهان كثيراً. لم أتمكن من تجلي الأمر. إذ توجّب أن أمضي بالصبي حالاً لأحمله إلى هنا نحو القمم العالية.

كيروني: كان الأفضل أن يبقى هذا الطفل في النار. أنت لا تملك شيئاً يشبه أمك سوى الهيئة الإنسانية التعيسة. أنت ابن الضوء الذي يعشي الأبصار بقساوته، ينبغي عليك أن تحيا في عالم من ظلال حزينة دامية، في جسد ساقط من أنفاس وحمى كل هذا يأتيك من الأثير. والضوء ذاته الذي خلقك سيتحسس العالم متذمراً، وفي كل مكان سيجلي لك الحزن عن الانطواء وتفاهة الأشياء، وباتجاهك ستستيقظ الأفاعي.

هارميتي: من المؤكد أن عالم الأمس قد اندحر حتى وإن مضى في الضوء. لكن هل لك أن تقولي لماذا الموت؟

كيروني: لن نشهد أبداً «أنوديو» تعبر «الدايمو» مبتهجة بين القصيبات والصخور فهذا يكفينا. إن الكلمات دماء.

هارميتي: يا كيروني، يمكنك أن تصدقني حينما أقول لك بأنني أبكيها كما تبكونها أنتم. لكن، أقسم لك إنني أجهل لماذا اغتالها الرب. يتحدثون في «لاريسا» عن لقاءات بهيمية في المغارات وفي الأحراش.

كيروني: ماذا يعني هذا؟ فنحن ذوو أصول حيوانية. وأنت بالذات كنت تحيا في

«لاريسا» برأس ثور. وفي فجر الأزمنة البعيدة وصلت إلى أوحال المستنقعات دامياً ولم تزل آنذاك بدون هيئة مثلما كان العالم هو الآخر بلا هيئة، أأنت الذي يدهش؟

هارميتي: إن ذلك الزمن بعيد يا كيروني، وها أنا الآن أحيا تحت الثرى وفوق تقاطع الطرقات. أراكم أحياناً تأتون من الجبل مثل السدود الحصينة، تتقافزون فوق المستنقعات والهضاب، فأتبعكم وأدعوكم للألعاب. أعرف طبيعتكم، وأنتم لا تبدون دائماً هكذا. ذراعاك وصدرك تكشف عن هيئة رجل، وحتى أضيف شيئاً آخر أقول: إن ضحكاتكم الإنسانية العريضة هي التي قتلتها وكذلك مطارحات الغرام مع الآلهة، الرفيقات اللواتي يبكينها الآن تبدو أشياء مختلفة. حتى أمك، إن لم أخطئ، هي الأخرى كانت قد أعجبت أحد الأرباب.

كيروني: إنها أزمنة أخرى حقاً، فلكي يحبها الرب القديم جعل من نفسه فحلاً فوق قمة جبل.

هارميتي: على أية حال، لتقل لي السبب الذي دفع «كورنيدا» الجميلة أن تتنزه في الوديان، وأن تلعب مع «الراديوسو» الذي قتلها غيلة وأحرق جسدها؟

كيروني: آه... كم مرة شاهدت في «لاريسا» بعد ليلة عاصفة كيف ينهدّ في السماء جبل «الأولمب»؟

هارميتي: لم أكن أشاهده وحسب، بل كنت أتسلقه أيضاً.

كيروني: ذات يوم، تسابقنا نحن أيضاً ممتطين الخيول من ساحل إلى آخر، ومن قمة إلى أخرى.

هارميتي: حسناً، ينبغي لك أن تعود إلى تلك الأزمنة. يا صديقي، لقد عادت «كورونيدا».

هارميتي: ماذا تعني بهذا؟

كيروني: أعني أن ذلك هو الموت. هناك سادة لم يعودوا سادة كالعجوز «كرنو»، أو

والده الأقدم، أو نحن أنفسنا في هذه الأيام التي نتذكر فيها بهجتنا. في تلك الأزمنة كانت البهائم وكانت المروج هي أرض اللقاء بين الإنسان والآلهة. الجبل، الفرس، النباتات، الغيمة، الشلال، كلنا كنا تحت الشمس. فمن كان بمقدوره أن يموت في ذلك الزمن؟

هارميتي: يا كيروني، إن لك بنات، وهن نساء ومُهَرُ بإرادتهن. فلمَ تشكو؟ هنا عندكم في الجبل، الوادي والفصول، التي لا تبخل في إسعادكم. تسكنها الإنسانية، بقصبها وقراها، بتقاطع سهولها، وزرائبها، ومداخن بيوتها. فحتى الفانون التعساء يجعلون منكم أسطورة، وهم على أهبة دائمة لاستضافتكم، ألا يبدو لك أن السادة الجدد قد حفظوا هذا العالم بصورة أفضل؟

كيروني: إنك منهم وتدافع عنهم. أنت الذي كنت ذات يوم شرارات وغضباً، ها أنت تعود الآن كظلال دامية تحت الثرى. ماذا يكون القانون سوى الظلال التي تتحدى الزمن؟ لكن يطيب لي أن أفكر بوالدة هذا الصغير وقد قفزت لوحدها نحونا، إضافة إلى كونها واجهت قدرها وهي تموت.

هارميتي: الآن أعرف لماذا ماتت، هي التي سارت عند تخوم الجبل وكانت امرأة قد واجهت الرب بكل الحب الذي كانت تأمل منه هذا الطفل.
أنت تقول بأن الرب كان متجبراً. أيمكنك أن تقول بأن «كورنيدا» قد خلفت وراءها في الأوحال الرغبة العارمة، والاضطرام الدموي الهلامي الذي خلق وجودها؟

كيروني: كلاّ. ولكن ماذا يعني هذا؟

هارميتي: آلهة «تساليا» الجدد يتبسمون طويلاً، لكن لا يمكنهم قط أن يضحكوا لشيء. لتصدق إنني شاهدت القدر، ففي كل مرة تتقدم الفوضى في ضيائهم يتوجب عليهم الطعن والتدمير ومن ثم البناء من جديد. لكن، لماذا ماتت «كورنيدا»؟

كيروني: على أية حال إنني على صواب حين أعتقد أن «أولمب» هو الموت.

هارميتي: حتى «الراديوسو» وقع في غرامها. كان سيبكيها لو لم يكن رباً. وقد انتزع الطفل منها وأودعه لديك ببهجة كبيرة. أعرف أنك وحدك من يقدر أن يجعل منه رجلاً حقيقياً.

كيروني: حدثتك قبل هذا عما ينتظر أولئك في البيوت الفانية. سيكون «أسكليبو» سيد الأجساد، الإنسان الرب. سيحيا بين الأجساد القابلة للتلف وإليه سيتوجه الناس ليتخلصوا من المصير، لكي يؤخروا احتضارهم ليلة أو لحظة. سيمر هذا الصبي بين الحياة والموت. عندما كنت تحمل رأس ثور كنت شيئاً آخر. أما الآن فلست سوى قائد الظلال. هذا هو المصير الذي سيهبه «الأولمبيون» إلى الأحياء فوق الأرض.

هارميتي: أوليس من الأفضل للفانين، أن ينتهوا هكذا؟ فليس في ذلك أي عقاب، ما دهاهم حينما كانوا يتجسدون في صور البهائم أو في الأشجار، أو يصبحون ثيراناً تخور أو أفاعي تزحف، أو حجراً سرمدياً، أو نافورة ماء تبكي خلاصها؟

كيروني: ما دام «الأولمب» سيكون هو السماء، فهذا أكيد. لكن هذه الأشياء ستمضي هي الأخرى.

●●●

الزهـــرة

يدعي «الليوبارديان»، «إيروس» و«تاناتوس» بأن هذا الأمر اللذيذ القاسي، الذي لم يستطع حتى إله الربيع «أبولو» القاهر أن يقززنا منه، ما هو إلا حالة من التجلي.

(حوار بين إيروس وتاناتوس)

إيروس: أكنت تنتظر هذا الأمر يا «تاناتوس»؟

تاناتوس: إنني أتوقع كل شيء من «أولمب»، لكن أن ينتهي بهذه الطريقة، فكلا.

إيروس: لحسن الحظ، سوف يدعوه الفانون بسوء الطالع.

تاناتوس: ليست هي المرة الأولى ولن تكون الأخيرة.

إيروس: مع ذلك فإن «أيجينتو» قد مات، وقد بكته الأخوات قبل ذلك. وقد تندت الزهرة عديمة الفائدة من دمه وهي تطرّز الآن كل سهول «ايورطا» الساحرة. إنه الربيع يا «تاناتوس»، الذي لن يراه الفتى.

تاناتوس: تنبت هذه الزهور حيث يمر أحد السرمديين. لكن في المرات السابقة، على الأقل، كان ثمة هرب، اعتذار، ومهانة. كلهم كانوا يصارعون الرب، أو يقترفون الآثام. هكذا حدث لكل من «دافنة»، «هيلين»، و«عطونة».

حينما لم يتجاوز سنوات الفتوة «أيجينتو» بعد أن كان يحيا أيامه مجلاً سيده. عندما كان يلعب معه كمراهق كان مضطرباً ومندهشاً. وأنت، يا «إيروس»، تعرف هذا.

إيروس: قبل هذا كان الفانون يعتبرون ذلك سوء طالع. لا أحد يفكر أن «الراديوسو» يسلّط ضرباته عبثاً.

تاناتوس: لقد ساندت البسمة الشاحبة تلك التي تواصلت مع طيران القرص وسقوطه. ومن ناحية أخرى فقد رُمي ذلك القرص صوب الشمس. أما «أيجينتو» فقد هزّ عينيه ومدّ يديه وهو ينتظره منبهراً. بعدها صبّ على جبهته الرصاص. فلماذا كل هذه الفظاعة يا «إيروس»؟ لا بد أنك تعلم.

إيروس: ما الذي ينبغي أن أقول لك، يا تاناتوس؟

إنني لا يمكنني أن أكون رقيقاً مع قشعريرة الجسد، وأنت تعرف هذا الأمر. لمّا يقترب إله من أحد الفانين، حينها يجرب على الدوام شيئاً قاسياً. أنت ذاتك

تحدثت عن كل من «دافنة» و«عطونة».

تاناتوس: ما الذي كان هذه المرة؟

إيروس: لقد أخبرتك من قبل بأنها القشعريرة. أراد «الراديوسو» أن يلعب، فنزل بين الرجال وشاهد «أيجينتو». عاش لستة أيام في «أميكلي»، ستة أيام حوّلت قلب «أيجينتو» عن عاداته وجددت الأرض. وحين أراد السيد العودة، نظر إليه «أيجينتو» شارداً. حينها، صبّ الرصاص بين العينين.

تاناتوس: من يدري.. ربما ودّ «الراديوسو» البكاء.

إيروس: لا، «الراديوسو» لا يعرف ما هو البكاء.

نحن نعرفه، آلهة وشياطين صغاراً، حيث كنا نحيا عندما لم يكن «الأولمب» سوى جبلٍ هرمٍ. شاهدنا أشياء عديدة، الصخور والأشجار وهي تبكي. أما الرب فقد كان لا يهمه شيئاً أن تكون ستة أيام أو حياة كاملة. لا أحد اطلع على كل هذا مثل «أيجينتو».

تاناتوس: أتعتقد حقاً أن «أيجينتو» قد استوعب كل هذه الأشياء، وأن الرب أصبح نموذجاً، رفيقاً كبيراً، وأخاً موثوقاً ومحترماً؟ إني شاهدته فقط حين أطلّ في ميدان السباق، لم تكن فوق جبهته سوى الثقة والدهشة. كان «أيجينتو» يجهل تماماً من هو «الراديوسو».

إيروس: إن كل هذا ممكن يا «تاناتوس» ويمكن ألا يعرف الغلام من تكن «إلينوا» و«دافنة». أين ينتهي الكفر وأين تبدأ الثقة؟ من الصعب التصريح بذلك. ولكن من المؤكد أنه قد أمضى ستة أيام يتلظى شوقاً.

تاناتوس: حسب ما ترى، ما الذي حدث لقلبه؟

إيروس: ما يحدث لكل صبي. لكن هذه المرة، فإن موضوع الأفكار والأحداث بالنسبة لهذا الصبي كان أمراً استثنائياً. في الملعب، في الحجرات، عند انحدار مياه «إيروتا»، كان يتحدث مع الضيف، يرافقه، ويصغي إليه.

فقد أصغى لحكايات «الدلو»، و«الدلفي»، و«التيفوني»، و«التساليا» وبلاد

«الأبيربوري». كان الرب يتحدث مبتسماً هانئاً. ما الذي يفعله ابن السبيل الذي يعتقدون أنه قد مات في حين يشاهدونه يعود أكثر جسارة. المؤكد أن الرب لم ينبس بحرف من «أولمبياه» عن رفاقه السرمديين وعن أشياء إلهية أخرى. فقد تكلم عن نفسه، عن الأخت، و«الكاريتي» كما لو أنه يتكلم عن حياة مألوفة، مدهشة ومعتادة. في بعض الأحيان أصغيا سوياً لشاعر جوّال، استضافاه ليلة.

تاناتوس: لا شيء مستهجن في كل هذا، لا شيء مستهجن، بل على العكس إنها مفردات لقاء. «أيجينتو» تعلم أن سيد «الدلو»، بعينيه تلك الحائرتين وتلك الكلمة الرائقة، قد عاش وخبر أموراً عديدة في العالم كان يمكن أن تصيبه هو ذات يوم. تجادل الضيف هو الآخر حول قدره. حياة «أميكي» المرتبكة كانت له صافية ومألوفة. كان يقدم اقتراحات، وكان يتعامل مع «ايجينتو» كندّ وقرين. فـ«أغلايه» و«إيرينومي» و«أوكسيو» كلهن نساء بعيدات وما زلن في مقتبل العمر، اعتدن ممارسة الفرح، وقضين مع الضيف بعض الأوقات الحميمة. هذه هي حالة الصبي. كان كل شيء أمام الرب رائقاً وعذباً. وبدا «ايجينتو» وكأنه قادر على كل شيء.

إيروس: يا عزيزي، عند «أيجينتو» لم يكن سوى الأمل، أمل اضطرب بذلك التماثل مع الضيف. أما «الراديوسو» فلم يفطن إلى ما كان يقرأه في تلك العيون، فقد اكتفى بالإثارة، وكان يلْمح قبل ذلك في العينين وفي تويجات الزهرة المكان الذي كان من نصيب «أيجينتو». لم يفكر لا في الكلمات ولا في الدموع. فقد جاء كي يشاهد زهرة. وهذه الزهرة توجب أن تكون من نصيبه، مدهشة ومألوفة. مثل تذكار «الكاريتيين». وبهدوء بالغ التأني خلق تلك الزهرة.

تاناتوس: نحن السرمديين، نبدو وكأننا كائنات متوحشة. إني أتساءل إلى متى يستمر «الأولمبيون» في خلق الأقدار. فإن تجاوز كل شيء يمكن أن يحطمهم.

إيروس: من بمقدوره قول هذا؟ منذ أزمنة الفوضى لم نشهد سوى الدماء: دماء الرجال،

والعفاريت والآلهة. في الدماء نبدأ وفيها نموت. كيف تتصور أنت ميلادك؟

تاناتوس: لكي تولد ينبغي أن تموت، يدرك ذلك كل البشر، ويجهله «الأولمبيون». إن نسوا هذا الأمر فهم يواصلون في عالم يمضي. إنهم موجودون وغائبون. كل قشعريرة تصيبهم هي قانون قدري، ولكي يعبّروا عن الوردة يقومون بتدمير إنسان.

إيروس: نعم يا تاناتوس، لكن ألا نريد أن نتعرف على الأفكار الثرية التي اطلع عليها «أيجينتو»، ذلك الأمل المضطرب الذي كان موته مثل ميلاده، كان فتى جاهلاً، مستغرقاً، ما زال يلفّه ضباب الطفولة فهو ابن «اميلكي»، الملك المتواضع على الأرض المتواضعة.

تاناتوس: يا إيروس أنه إنسان على شبه الآخرين.

إيروس: إنني أعلم، وأعلم أيضاً أنه لا يمكن الهرب من القدر. لكنني لا أعرف أن أكون رقيقاً مع القشعريرة. عاش «أيجينتو» ستة أيام في ظل توهّج الأضواء ولم تنقصه بهجة مكتملة، ولا حتى النهاية السريعة والمريرة، تلك التي يجهلها «الأولمبيون» والسرمديون.

تاناتوس: ما الذي يبكيه «الراديوسو» مثلما نبكيه نحن؟

إيروس: أنت تطلب الكثير يا تاناتوس.

●●●

الـــوحـش

نحن مقتنعون أن مطارحات الغرام بين «أرتميدا» و« إنديميوني » لم تكن جسدية، وبالرغم من كل شيء فلا مانع من إتيانها. فخائر القوى بين الاثنين يزفر ويسفح دماً، طبيعة الربة العذراء القاسية، سيدة الوحوش، التي ذاع صيتها في عوالم حوض المتوسط من ربات أمهات، فهذا كله معروف، ونعرف بالقدر ذاته أن الذي لا ينام يتمنى النوم وأن يغدو مشهوراً في التاريخ كحالم سرمدي.

(حوار بين إنديميوني وأحد الغرباء)

إنديميوني: لتصغ أيها العابر! يمكنني أن أقول لك هذه الأشياء كشخص غريب فلا تخيفك عيوني المجنونة. الأسمال التي تلف قدميك قبيحة مثل عيوني لكنك تبدو رجلاً صالحاً. حين تدفعك الرغبة ستتوقف في البلد الذي اخترته وهناك ستملك حصناً، عملاً، بيتاً، لكنني على قناعة تامة ما دمت الآن تتجول فلأنك لا تملك شيئاً سوى قدرك. وأنت تمضي في الطرقات في هذه الساعة من الفجر، تبدو مطمئناً كونك مستيقظاً بين الأشياء حين تخرج لتوّها من العتمة ولم يلمسها بعد أحد، ألا ترى ذلك الجبل؟ إنه «اللاتمو»، لقد تسلقته أنا في الليل مرات عديدة حين كان أكثر عتمة، وانتظرت الفجر بين شعابه، ومع ذلك لا يبدو عليه وكأنني قد لامسته إطلاقاً.

الغريب: من يمكنه القول إنه قد لامس من يعبره؟

إنديميوني: أحياناً أفكر أننا مثل الرياح التي تعبر لا مرئية، ومثل أحلام الحالمين. أنت أيها الغريب! أتحب نوم القيلولة؟

الغريب: أنا عندما أنعس أسقط متهالكاً.

إنديميوني: أنت يا من تقطع الطرقات! أيصادفك في النوم أن تسمع حفيف الرياح، زقزقة العصافير، أصوات الصهاريج، الوزوزة، وصوت خرير المياه؟ ألا يبدو لك ذلك حين تكون نائماً كي لا تكون وحيداً أبداً؟

الغريب: لا أعلم، فلقد عشت وحيداً على الدوام، أيها الصديق.

إنديميوني: آه أيها الغريب، أنا لا أجد الأمان في النوم بعد كل ما حصل لي. أعتقد أنني قد نمت دهراً ومع ذلك أعرف أن هذا ليس حقيقياً.

الغريب: تبدو لي رجلاً مكتملاً، وغليظاً.

إنديميوني: أنا كذلك، أيها الغريب، أنا كذلك. ولا أجهل خدر النبيذ، وذلك النوم الثقيل الذي يرافق حضور امرأة، لكن كل هذا لم يعدْ يروق لي. من مهجعي الآن

أسترق السمع، وأهيئ نفسي للقفز ولي هذه العيون، إنها تشبه عيون من يحدق في العتمة. يبدو لي وكأنني عشت أبداً هكذا.

الغريب: هل افتقدت أحداً ما؟

إنديميوني: أحداً ما ؟ آه أيها الغريب، أتعتقد أننا من الفانين؟

الغريب: أمات لك أحد ما؟

إنديميوني: لا أحد. أيها الغريب، حينما أهم بالتسلق، أشعر أنني لم أعد فانياً. لا تنظر إلى عينيّ، فالأمر لا يتعلق بهما. أعلم أنني لا أحلم، فمن زمن بعيد لم أنم. أترى نتوءات الشعاب البعيدة تلك فوق الصخور؟ هذه الليلة كنت هناك وانتظرتها.

الغريب: من كان ينبغي أن يصل؟

إنديميوني: لا نعلن عن اسمه. لا نعلن عنه. فليس له اسم.

أو له العديد منها، فأنا أعلم ذلك. إنه رفيق الإنسان. هل تعرف رعب الأحراش البرية حين تتفتح ككوّة ليلية؟ أولاً. حين تفكر ليل نهار في الكوّة اذكر كيف شاهدت العديد من الأشياء وتجاوزت النهار، وكانت ثمة زهرة، وحبة قمح تتطاير في الرياح. هذه الحبة، تلك الزهرة، هي أشياء برية. ألا تلمس، إنها أشياء فانية، أتفهم هذا أن تكون الزهرة كأنها الوحش؟ أيها الرفيق، ألم تحدق ذات يوم برعب ذئب، وبطبيعة ريم، وبرعشة أفعى؟

الغريب: أتعني، جنس الوحش الحي؟

إنديميوني: نعم، ولكن لا يكفي. ألم تتعرف على أشخاص يبدو وكأنهم تجمّعوا في شيء واحد، وتحمل كل تلك الشخوص معها، بحركاتها، وفكرها ابتعاداً عن أرضك وسمائك، بعيدة عن كلماتك وذكرياتك وعن الأيام الماضية التي لم تعرفها أبداً. حتى الأيام القادمة، والأرض القادمة، فإنها تتشكل بأرض أخرى وسماء أخرى لم تكن ملكك أبداً.

الغريب: سمعت من يتحدث عن هذا.

إنديميوني: آه أيها الغريب، أيكون هذا الشخص هو الوحش، الجوانب المتوحشة في الطبيعة التي يصعب مسها، والتي ليس لها أسماء؟

الغريب: أنت تتحدث عن أشياء مرعبة.

إنديميوني: لكن لا يكفي. أنت تصغي إليَّ كأن ما أقوله عين الصواب. وأنت تمضي في الطرقات، تعرف أن الأرض مليئة بما هو إلهي ومرعب. وإن أتحدث إليك فلأنني وإياك مثل أفاقين مجهولين، فثمة شيء إلهي بدواخلنا.

الغريب: أجل، لقد شاهدت أشياء عديدة، وبعضها كان مرعباً. لكن لا ينبغي المضي بعيداً. ينبغي عليّ أن أسرّك، فأقول لك إن السرمديين يعرفون طريق الخطوات.

إنديميوني: على أية حال، أنت تعرف، ويمكنك أن تصدقني. لقد نمت ذات ليلة عند جبل «اللاتمو» عند المساء، حينها تهت في تشردي وغفوت جالساً في مقابل أحد جذوع الأشجار. استيقظت تحت القمر، في الحلم أصابتني رعشة وأنا أفكر بأنني كنت هناك، في الوادي ورأيتها: عينان صارمتان، شفافتان، واسعتان. وقتها كنت أجهل كل شيء. لم أدرك ذلك إلا في اليوم التالي، لكنني كنت قد أصبحت أحد أشيائها، وكنت مصعوقاً في دائرة عيونها وفي الفضاء الذي تشغله. من الوادي، من الجبل قفزت مبتسماً، وقلت لها: «أيتها السيدة»، وحكت الأهداب، كما تسلك فتاة متوحشة بعض الشيء، كما لو أنها فهمت دهشتي، وكنت في أعماقي مأخوذاً بالرعشة وأنا أدعوها بالسيدة، بدا ذلك الهلع وكأنه قد استمر بيننا لاحقاً أيها الغريب. لقد نطقت باسمي، وتقرّبتْ مني لكن لم يسمح لها لباسها بالحركة الطليقة. لامستني ومسحت على شعري بكلتا يديها. لامستني بحرارة وفاجأتها ابتسامة. ابتسمت بسمة لا تصدق، بسمة فانية. أما أنا، فكاد يُغمى عليّ. فكرت بكل أسمائها، لكنها عاملتني مثلما يعامل الطفل الصغير. قالت لي: «أنت يجب ألا تستيقظ إطلاقاً». «ينبغي ألا تقوم بحركة، فسأعود ثانية للالتقاء بك» ثم مضت في

الوادي. قطعت «اللاتمو» تلك الليلة، واستمرّ مسيري حتى الفجر. تابعت القمر في كل الأحراش، في الزوايا، فوق قمم الجبال. أصغت السمع لذلك الصوت المرتعش قليلاً، الصوت البارد، والأمومي. كل همسة، وكل ظل كانا يأسراني. من المخلوقات المتوحشة لمحت الهرب ولا غير. عندما جاء الضوء حدقت في الوادي من أعلى هذا الطريق الذي عبرناه يا أيها الغريب، وهكذا فهمت أنه من المستحيل أن أعيش بين البشر، في ما بعد لم أعد أحدهم، كنت أنتظر المساء.

الغريب: إنك تروي أشياء لا تصدق يا إنديميوني. وهي لا تصدق في جانب واحد أعني، ما دمت رجعت إلى الجبل ولم تزل بعد حياً تتجول إلى الآن، إذن فالمتوحشة، سيدة الأسماء، لم تحولك مثل أمثالها.

إنديميوني: أنا منها، أيها الغريب.

الغريب: أعني.. ألا تعرف قصة الراعي الذي نهشته الكلاب، الرجل الغزال، ذلك المخلوق المذهل؟

إنديميوني: آه أيها الغريب، فأنا أعلم كل شيء عنها. لأننا تكلمنا، وتكلمنا، وأنا باستمرار كنت أوهمها بالنوم كل الليالي، ولم أكن ألمس يدها، كما لا تلمس اللبوءة ولا يلمس الماء الأخضر المتساقط من الشلال، أو تلك الأشياء التي تخصنا أكثر من غيرها، ونحملها معنا في القلب على الدوام. تقف أمامي، فتاة نحيفة، عابسة، تنظر إليّ. والعينان الواسعتان، الشفافتان كانتا تشاهدان أشياء أخرى، ولا تزالان تشاهدان إلى الآن. في تلك العينين ثمة بذرة، توحش، صراخ، موت، وظفرٌ قاسٍ. أعرف الدم المراق، الأجساد الممزقة، الأرض النهمة، أعرف العزلة.. مداعباتها تلك الموجهة للكلاب، أو لجذع شجرة. لكن، آه أيها الغريب، هي كانت تنظر إليّ، وتمعن وتطيل النظر، وفي الرداء القصير ترتمي، كانت فتاة نحيلة ، مثل تلك التي شاهدتها في بلدك.

الغريب: عن حياتك كرجل، يا إنديميوني ألم تتحدثا؟

إنديميوني: أيها الغريب، إنك تعرف أشياء مذهلة. ألا تعلم أن البدائي والإلهي يلغيان الإنسان؟

الغريب: حينما تسلقت جبل «اللاتمو» لم تعد فانياً، أعلم هذا. لكن السرمديين يعرفون البقاء بمفردهم. وأنت لا تريد العزلة. أنت تبحث عن جنس آخر. أنت توهم بالنوم. ما الذي طلبته هي على أية حال؟

إنديميوني: طلبت أن تبتسم ثانية، ولكن على أن تكون هذه المرة دماً يُهرق أمامها، وأن تكون لحماً بين فكيّ كلبها.

الغريب: وماذا قالت لك؟

إنديميوني: لم تقل شيئاً. كانت تنظر إليّ، تركتني وحيداً تحت غطاء الفجر. وفتشت عنها بين ممرات الجبل. كان ضوء النهار يجرّح عينيّ. «يجب ألاّ تستيقظ إطلاقاً» هذا ما قالته لي.

الغريب: آه أيها الفاني، ذلك اليوم الذي ستكون فيه مستيقظاً بحق سوف تفهم لماذا أودعتك ابتسامتها.

إنديميوني: أعرف ذلك منذ البداية، آه أيها الغريب، آه يا من يتكلم وكأنه أحد الأرباب.

الغريب: إن الإلهي والمتوحش يجريان فوق الأرض، ونحن نمضي فوق الطرقات. وأنت بالذات من قال هذا.

إنديميوني: آه أيها الربّ، كانت عذوبتها مثل عذوبة الفجر، وهي أرض وسماء تتفتحان. إنها إلهية. لكن للآخرين أوامر صارمة ألاّ يلامس ركبتيها أحد.

الغريب: يا إنديميوني، لتسلم في قلبك الفاني. فلم يلمسها رب ولا إنسان. صوتها المتهدج بلهجة الأمومة، هذا هو كل ما يمكن أن تهبك إياه.

إنديميوني: وكذلك.

الغريب: ماذا وكذلك؟

إنديميوني: طالما سيبقى ذلك الجبل فلن أجد سلاماً في النوم.

الغريب: يا إنديميوني كل واحد وله حلمه المقتدر. وحلمك منام لا ينتهي من أصوات

وصراخ، ومن أرض و سماء وأيام. فلتقفوا بشجاعة، فليس لكم شيء أطيب من النوم. لتعلم أن العزلة المتوحشة من نصيبك. فلتحبها كما أحبتك هي، يا إنديميوني، ها أنا أودعك. ستراها الليلة.

إنديميوني: آه أيها الرب، إني أشكرك.

الغريب: إلى اللقاء. ولكن لتتذكر فلا ينبغي بعد ذلك أن تستيقظ.

●●●

رذاذ الموجـــة

يحدثنا «كاليماغو»، عن السعلاة «الكريتية» المسماة «بريتومارتي». إن كانت «سافو» سحاقية، فهذا شيء مؤسف، لكننا نعتبر الأمر الأكثر مدعاة للحزن عندها هو مقتها للحياة، لهذا توجهت إلى البحر وألقت بنفسها فيه، أجل في بحر الإغريق. فهذا البحر مليء بالجزر، وفي تلك الأكثر شرقية من كل الجزر الأخرى، أعني جزيرة «قبرص»، حيث نزلت «أفروديت» التي ولدت من الأمواج. كان ذاك البحر قد شهد عشقاً منفلتاً ونكبات أشدّ هولاً. إن من الضروري أن نذكر أسماء «آريادينا»، «فيدرا»، «أندرماكا»، «أميلاّ»، «شيلاّ»، «آنّا»، «كاسادرا»، «ميديا»؟ فكلهن عبرن الجزيرة، وأكثر من واحدة لم تغادرها. تأخذنا الأفكار بعيداً. فكل هذا مزيج من الدموع والإفرازات المنوية.

(حوار بين سافو وبريتومارتي)

سافو: إن الحال هنا مضجر، يا بريتومارتي. البحر هو التكرار. أنتِ يا من تقيمين هنا منذ زمن بعيد ألا تضجرين؟

بريتومارتي: أنتِ من فضلت هذا حين كنت فانية، أعرف هذا منذ زمن بعيد. والتحول إلى موجة يعلو رذاذها لن يكفيك. ومع هذا تبحثين عن الموت، هذا الموت. لماذا تبحثين عنه؟

سافو: لم أكن أعلم أنه سيكون هكذا. اعتقدت أن كل شيء سينتهي مع القفزة الأخيرة. كنت أُحدث نفسي: بأن الرغبة، الهلع، والاضطراب كلها ستختفي. فالبحر يبتلع، البحر يفني.

بريتومارتي: كل شيء في البحر يموت، ويعود ليحيا. الآن أنتِ تعرفين هذا.

سافو: وأنت لماذا بحثت عن البحر يا بريتومارتي، أنتِ يا من كنت في زمن ما سعلاة؟

بريتومارتي: لم أبحث عنه، ذلك البحر. أنا كنت أحيا فوق الجبال، وكنت أهرب تحت ضوء القمر، يطاردني لا أدري أياً من أولئك الفانين. أنت يا «سافو»، تجهلين أحراشنا الشاهقة الارتفاع، ولم تعرفي شيئاً عن التحليق فوق البحر، قفزت كي أنقذ نفسي.

سافو: ولماذا تنقذين نفسك؟

بريتومارتي: كي أتخلص منه، لكي أكون أنا، وذلك قدر، يا سافو.

سافو: أيمكن هذا؟ التخلي عن الأيام، عن الجبل والوادي، التخلي عن الأرض والتحول إلى رذاذ موجة؟ كل هذا لأنه توجّب عليك فعله، ما الذي كان ينبغي عليك فعله؟ ألم تكوني مخلوقة حتى من هذه الرغبات؟

بريتومارتي: لا أفهمك، يا سافو الجميلة. إن الرغبات والمخاوف جعلت منك ما أنت عليه، ثم تتجاهلين إني أنا الأخرى كنت قد هربت.

سافو: أنتِ لم تكوني فانية وكنت تعلمين أن لا مهرب.

بريتومارتي: يا سافو لم أهرب من الرغبات. فما أرغب فيه موجود عندي. في بداية الأمر كنت سعلاة الصخور، والآن ها أنا ذا سعلاة البحر. نحن مخلوقات من هذا وحياتنا هي الورقة والجذع، رغوة المياه، رذاذ الموجة. نحن نلعب كي نعري الأشياء، لا لكي نهرب. بل لنتحول. هذه هي رغبتنا وهذا قدرنا. والرعب الوحيد الذي ينتابنا حين يمر بنا إنسان، حين يوقفنا. وعند ذاك ستحل النهاية. أتعرفين «كاليبزبو»؟

سافو: لقد سمعت عنها.

بريتومارتي: ذات مرة أوقفها رجل، ولم يعجبها منه شيء. ومنذ سنوات طويلة، لم تعد تخرج من مغارتها. ثم جاءت «ليوكتيا»، «كالينيرا»، «كيمودرشي»، و«أوريتيا». وجاءت «أنفتريت»، وتحدثن جميعهن إليها، أخذنها معهن، من أجل تخليصها. وتطلب الأمر سنوات كي يرحل ويتركها ذلك الرجل.

سافو: أمَا فهم «كاليبزبو» لكنني أجهل أن يكون قد أصغى إليكن. وأيّ شيء هي الرغبة المستسلمة؟

بريتومارتي: آه يا سافو، إنها موجة قاتلة، ألا تعرفين أبداً ما الذي تعنيه البسمة؟

سافو: عرفت ذلك حين كنت أحيا، وبحثت عن الموت، الابتسامة هي أن تعيشي مثل الموجة، مثل الورقة، راضية بالنصيب. إن الموت في هيئة والميلاد في هيئة أخرى.

بريومارتي: إنه الرضا، الرضا عن النفس والرضا بالنصيب.

سافو: هل قبلت به أنت على أية حال؟

بريتومارتي: لقد هربت، يا سافو. وبالنسبة لنا فالأمر يبدو أكثر سهولة.

سافو: حتى أنا يا بريتومارتي عرفت الهرب، من خلال الأيام. إن غاية ذلك الهرب كي أرى الأشياء والأوجاع، وأن أجعل منها أغنية، كلمة. لكن القدر شيء آخر تماماً.

بريتومارتي: لماذا يا سافو؟ إن النصيب هو البهجة، وحين كنت ترددين الأغنية كانت تغمرك السعادة.

سافو: لم أكن يوماً سعيدة، يا بريتومارتي. الرغبة ليست الغناء، الرغبة تحرق وتفكك، مثل الأفعى، مثل الريح.

بريتومارتي: ألم تتعرفي ذات يوم على نساء فانيات عشن بسلام ما بين الرغبة والسأم؟

سافو: ولا واحدة... ربما.. ليست تلك الفانيات الشبيهات بسافو. وحين لم أكن قد ولدت بعد، كنت أنت لا تزالين سعلاة الجبال. امرأة عبرت هذا البحر، امرأة فانية، عاشت مضطربة، ربما في سلام. امرأة تعمدت القتل، التحطيم، وفقدت بصرها، كأنها إلهة أبداً تتساوى مع نفسها. وربما لم يكن بوسعها أن تبتسم. كانت جميلة، وحولها كان كل شيء يموت ويصارع. يا بريتومارتي، كن يقاتلن، ويمتن سائلات فقط أن يتحد اسمها مع أسمائهن. وكن يتسمن لها.. إنك تعرفينهن، «هيلين»، «تيندا»، «ريدا»، ابنة «ليدا».

بريتومارتي: وهذه الأخيرة، أكانت سعيدة؟

سافو: هي لم تهرب، هذا مؤكد. كانت مكتفية بنفسها. لم تسأل أي شيء كان نصيبها ومن هو الذي رغبت به. كانت قوية بما يكفي، وظلت تتبع لعشر سنوات أحد الأبطال، وعادوا وفصلوه عنها بعد أن أخذها معه، وبعد أن فصلوها عنه زوّجوها برجل آخر وهذا أيضاً أضاعها، والكثير من القادمين من وراء البحار تقرّبوا منها. ثم أخذها شخص ثالث، عاشت بسلام معه، وفي عالم الأموات السفلي عرفت رجالاً آخرين. لم تكذب على أحد، لم تبتسم لأحد ربما كانت سعيدة.

بريتومارتي: وأنت هل تحسدينها؟

سافو: يا بريتومارتي، أنا لا أحسد أحداً. إنما تمنيت الموت. أن أكون واحدة أخرى غير نفسي، فهذا لا يكفيني. إن لم يكن بإمكاني أن أكون سافو، فأفضل ألاّ أكون شيئاً.

بريتومارتي: على أية حال هل تقبلين النصيب؟

سافو: لا أقبله، لا أحد يقبله.

بريتومارتي: إلا نحن اللواتي يعرفن الفرح.

سافو: إنها قوة جميلة، وهي من نصيبكن. لكن ماذا يعني هذا؟

بريتومارتي: يعني القبول ثم القبول.

سافو: وماذا يعني هذا؟ أيمكن قبول كل شيء إلا تلك القوة التي تنبهك وأنت تتحولين رغبة، رغبة مرعبة ترتجف حول جسد رفيق أو حول جسد رفيقة، مثل الرذاذ بين الصخور الناتئة؟ ثم يدفعك هذا الجسد ويقتحمك، وأنت تسقطين مرة أخرى وأخرى. وتتمنين معانقة الصخور، وتقبيلها. وفي أحيان أخرى تتحولين أنت إلى تلك الصخرة، تتحولين إلى رذاذ، يضطرم، يتساقط عند قدميك. لم يعد لأحد أمان إطلاقاً. أيمكن قبول كل هذا؟

بريتومارتي: ينبغي قبوله. أردت الهرب، لكنك أيضاً لست سوى رذاذ.

سافو: لكن أتشعرين بهذا الكسل، هذا الاضطراب البحري؟ هنا كل شيء يتلّ ويتصاعد دونما استراحة، حتى هذا الذي يموت، فهو ينكب أولاً ليحاور القلق، ومن ثم يموت.

بريتومارتي: ينبغي عليك أن تعرفي البحر، فأنت أيضاً تنحدرين من إحدى الجزر النائية.

سافو: آه يا بريتومارتي، منذ طفولتي كانت تتجاذبني الأشياء، إنها حياة منطفئة ومضجرة وحزينة، ليست ثمة كلمة يمكنها أن تفصح عن هذا الضجر الفاتر البطيء.

بريتومارتي: ذات يوم، في جزيرتي، كنت أشاهد وصول ركب الفانين، كانت ثمة نساء مثلك يصلحن للغرام، يا سافو لم يبدين لي أبداً حزينات ولم أشاهدهن متعبات؟

سافو: أعرف هذا يا بريتومارتي، لكن هل تبعت أثرهن لتعرفي مكامن حزنهن؟ كانت بينهن تلك التي انتحرت عند عتبة بيت في أرض أجنبية؟ وتلك التي

استيقظت في الصباح فوجدت نفسها فوق إحدى الصخور، مهجورة ثم الأخريات، العديد منهن، من كل الجزر، من كل الأراضي نزلن إلى البحر، وبينهن من كانت خادمة، وثمة تلك التي قتلت أطفالها، وتلك التي تلتهب رغبة ليل نهار، والأخرى التي لم تطأ بعد أرضاً فتحولت إلى شيء ما، كأنه وحش بحر.

بريتومارتي: لكنك قلت بأن «تينداريدا» قد خرجت سالمة.

سافو: بعد أن زرعت حرائقها ومذابحها في كل مكان. كانت صارمة، ولم تكن لتبتسم لأي أحد. لم تكن تكذب على أحد. آه، لقد كانت إحدى هبات البحر. يا بريتومارتي، كانت تتذكّر كل من ولد هنا في هذه المنحدرات الصخرية.

بريتومارتي: من تقصدين؟

سافو: ثمة إلى الآن جزيرة لم تشاهديها إطلاقاً. وحين يشرق الصباح، تكون الأولى تحت ضياء الشمس.

بريتومارتي: آه يا سافو..

سافو: هناك ولدت من الرذاذ الذي لا اسم له. الوسواس القلق هو الذي يبتسم وحيداً.

بريتومارتي: لكنها لا تقاسي، فهي ربة كبيرة.

سافو: وكل ما يبتل ويهتزّ في البحر، فهو جوهرها وروحها، هل رأيتها يا بريتومارتي؟

بريتومارتي: آه يا سافو، لا تقولي هذا. فلست سوى سعلاة صغيرة.

سافو: أنت ترين على أية حال.

بريتومارتي: أمامها كلنا نهرب. لا تتحدثي بهذا أيتها الصبية.

●●●

الأم

كان «ميلاكرو» قد ارتبط بالجمرة التي رفعها من النار حينما ولد له ابن. أقدم «ميلاكرو» على قتل عمه الذي كان يأمل أن يسلبه حصته من جلد الخنزير البري، هذا هو «ميلاكرو» الذي سيلقي لاحقاً في النيران تلك الجذوة ويتركها هناك رماداً.

(حوار بين ميلاكرو وهارميتا)

ميلاكرو: لقد احترقت يا هارميتا مثلما تحترق الجذوع الجافة في النيران.

هارميتا: ومع ذلك فقد تعافيتُ كثيراً.

ميلاكرو: كان العقاب قاسياً، منذ بدايته.

هارميتا: والآن اسمع يا ميلاكرو، أنت لست سوى أحد الأموات. إن اللهب، والاحتراق هما الآن شيئان طواهما الماضي، وأنت تبدو أدنى قدراً من ذلك الدخان الذي يتصاعد من تلك النيران، تكاد تكون عدماً، ليس لك سوى الاستسلام. فأنت لا ترى في العالم شيئاً ذا بال فالصباح، الليل، والأرياف لا تعنيك. فلتنظر الآن حواليك.

ميلاكرو: لا أرى شيئاً، ولا يهمني ذلك. فما زلت حتى الآن جذوة لم تنطفئ. ماذا قلت عن أرياف العالم؟ آه يا هارميتا، أجل، إن العالم جميل، والرب كذلك. إنه عالم متميز بجماله، ومليء دائماً عذوبة، أنت تملكين عينين رائعتين يا هارميتا. أما أنا ميلاكرو، فلم أكن سوى صياد وابن صيادين، ولم أرحل قطّ عن قريتي الصغيرة، عشت أمام الموقد، وحين جاء نصيبي كنت وقتها مغلقاً في جمرة النار التي سرقتها أمي. ولم أعرف سوى بعض الرفاق المتوحّشين وأمي.

هارميتا: هل تعتقد أن الإنسان، أي إنسان، عرف أشياء غير هذه الأمور التي ذكرتها؟

ميلاكرو: لا أعلم، لكنني سمعتهم يحكون عن حيوات حرة، هناك في ما وراء الجبل والأنهار، وراء المعابر والبحيرات. يحكون عن مصادفات وصدامات حصلت بين متوحشين وآلهة، عن رجال أكثر قوة مني. أكثر فتوّة، خاضعين لأقدار غريبة.

هارميتا: جميعهم كانت عندهم أمهات يا ميلاكرو. جهود ومشاق كثيرة توجب عليهم أداؤها، والموت كان ينتظرهم، بسبب حالات العشق التي بينهم ولم

يكن أحد منهم سيد نفسه، ولم يكن ليعرف إطلاقاً شيئاً آخر.

ميلاكرو: أم.. لا أحد يعرف أمي. لا أحد يعرف كيف كانت تنفلت حياتها من بين يديها وهي تتحسّس النيران التي تتوجه صوبها وتلك العيون الشاخصة في النيران. لا تعرف لماذا في اليوم الذي ولدت فيه كانوا قد استلوا الجذع من وسط اللهب ولم يتركوه ليتحوّل إلى رماد؟ بعدها توجب أن أترعرع وأن أصبح ذلك الميلاكرو، الذي يعرف البكاء، اللعب والذهاب إلى الصيد، ومشاهدة الفصول وهي تتغير، والتمتع بالدفء الذي نلتجئ إليه في برد الشتاءات. كل هذا وغيره يحصل لك كإنسان، لكن معرفة الأشياء الأخرى، وتحمل عبء ذلك في سويداء القلب حين يأخذك التحديق بعيداً بوجه قدرك اليومي فهذا هو العقاب. وفي مقابل كل ذلك، فإن العدو لا يغدو شيئاً ذا بال.

هارميتا: أنتم أيها الفانون، تتصرّفون بشكل سيئ. تأخذكم الدهشة بما تعرفون.

ميلاكرو: نحن الصيادين، يا هارميتا، كنا على الدوام في تحالف مع بعضنا، إذ حينما نتسلّق الجبال يسند أحدنا الآخر، فكل واحد يمسك بقبضته حياة الآخر إذ الرفيق لا يخان.

هارميتا: إنه لأمر يدعو للغرابة والانزعاج حين يُغدر بالصديق. لكننا لسنا بصدد هذا أن حياتكم هي أبداً في جمرة النار، وأنتم تحيون نصف يقين، والشوق الذي ينتهي عندكم ما زال إلى الآن هو شوقكم للأم. ألستم سوى لحم ودماء تلك الأمهات؟

ميلاكرو: يا هارميتا، لا بد أنك شاهدت عينيها، فمنذ الطفولة ثمة معارف مألوفة وأحاسيس تركزت على كل خطوة وكل حركة لأيام وسنوات. ولو عرفت الأمهات أنه لا مناص من الهرم والموت، فذاك عذاب، ففكرة إغضاب الأمهات تقود إلى الرعب والخشية. لهذا فليس من المقبول أن يشخصن بأبصارهن في النيران وهن يحدقن في الجمرة المشتعلة.

هارميتا: أتعرف يا ميلاكرو: كل هذا ومع ذلك تبدي استغرابك؟ ولكن أن يهرمن ويمتن فهذا يعني بأنك ذاتك خلقت كإنسان. وتعرف كيف تتحدّاهن هناك حيث تجد حواليك أحياء ووقائع وأحداثاً. وإذ توجد هذه العيون، وهي توجد دائماً يا ميلاكرو، فإن من يحملها هو الأم، وعلى الدوام. وأنت حينها لن تعرف مع من تتعامل لتكون مسروراً، ويبقى من المؤكد أنهم –الشيب والشبان– يعلمون. لا أحد يمكنه أن يسلم من قدره الذي حدد مصير حياته منذ ميلاده في النار.

ميلاكرو: هل يمسك أحد آخر بنصيبي يا هارميتا؟

هارميتا: كلهم يا ميلاكرو، كلهم. الكل ينتظرون الموت بسبب شوق لشخص مّا. في لحم ودم كل واحد ثمة أمّ حقاً أن الكثيرين يحملون قدراً من النذالة أكثر منك.

ميلاكرو: لم أكن نذلاً، يا هارميتا.

هارميتا: أتكلم معك كما لو أنني أتكلم مع الظلال وليس كما يحدث أن أتكلم مع الفانين. ما دام الإنسان لا يعرف فهو على قدر من الشجاعة.

ميلاكرو: لست نذلاً، إذا نظرت حولي، فسأعرف أشياء جديدة وعديدة. لكنني لا أعتقد أن تلك الشابة تعرف شيئاً عن تلك العيون.

هارميتا: لم تكن تعرف تلك العيون. كانت هي ذاتها تلك العيون.

ميلاكرو: آه أيتها الأطلسية، أنا أتساءل ما إذا كنت أمّاً وبالتالي يمكنك أن تحدقي في النيران.

هارميتا: لنرى إن كنت تتذكر تلك الكلمات التي تحدثت بها في ذلك المساء الذي التقيت فيه بذلك الخنزير الوحشي.

ميلاكرو: تلك الليلة، ليلة التقينا سويّاً. لن أنساها، يا هارميتا. أما «أطلنطا» فكانت تحتدم غضباً لأنني تركت ذلك المتوحش الضاري يهرب في الثلوج. وأصابتني ضربة من الخلف. لقد أحسست بتلك الضربة في الحال، ولكنني أجبتها

بحماس: «يعود إلى البيت. يعود مع النساء، يا أطلنطا فهنا ليس المكان مناسباً لعشق الصبايا». وفي المساء الذي شهد موت الخنزير الوحشي، سارت معي «أطلنطا» بين الرفاق وأعطتني العدّة لأنها كانت عائدة من السجن لوحدها فوق ذلك الوبر الناعم. تحالفنا، ذلك المساء، واتفقنا أن نذهب إلى الصيد على أن يجرد أحدنا من السلاح، لأن الآخر لن يقاوم بسبب الغضب.

هارميتا: وماذا قالت لك «أطلنطا»؟

ميلاكرو: لم أنس ما قالته، يا هارميتا، أجل قالت: «آه يا ابن الطيبة، ستكون جلدة الخنزير الوحشي فوق سرير عرسنا. وستكون بقيمة دمك ودمي». ثم ابتسمت لكي تسامح.

هارميتا: ليس ثمة فانية يمكن أن تفكر بأمها الشابة، يا ميلاكرو. لكن ألا يبدو أن قائل هذه الأمور يمكنه أن يحدق في النار؟ حتى تلك العجوز الميتة كانت قتلتك بسبب قيمة الدم.

ميلاكرو: آه يا هرميتا، إن كل هذا هو نصيبي المقرر سلفاً، وثمة فانون أيضاً وجدوا وعاشوا ظامئين دون أن يملك أحد منهم زمانه بين يديه.

هارميتا: أتعرفهم أنت يا ميلاكرو؟ لا بد أن تكون الآلهة. تمكّن أحد الأنذال في إخفاء رأسه. وحتى هو وأعني به النذل، كان يحمل دم أمّ، كان محمّلاً بالكراهية، احتشد جميع الشوق والغضب، في قلبه الأعزل.

ميلاكرو: ولكن حتى الساعة لم أشاهد أولادي. أكاد أجهل فراشي.

هارميتا: كنت محظوظاً. أبناؤك لن يولدوا أما سريرك فهو صحراء ممتدة. يمضي رفاقك إلى الصيد كما لو أنك لم توجد بعد لترافقهم. أنت الظل والعدم.

ميلاكرو: و«أطلنطا»، أطلنطا؟

هارميتا: يظلّ البيت خالياً مثلما كان يحدث على الدوام بعد أن يحلّ المساء، وتتأخّرون في العودة من رحلة الصيد. و«أطلنطا»، التي أغرتك بالانتقام لم تمت. كانت المرأتان تعيشان دونما كلام تحدقان في الموقد حيث ألقيَ بشقيق أمك وحيث

تحولت أنت إلى رماد. ربما لم تكن تكره إحداهما الأخرى فقد تعارفتا بطريقة ملائمة بدون الرجال، فالنساء لا يمكن أن يكنّ شيئاً.

ميلاكرو: إذن لماذا قتلونا؟

هارميتا: فلنسأل لماذا خلقوك، يا ميلاكرو.

●●●

الاثنــــان

عبثاً الرجوع ثانية إلى «هوميروس». نحن أردنا ببساطة أن نتحدث عن لقاء تم أثناء موت «بيتروكلس».

(حوار بين أخيل وبيتروكلس)

أخيل: يا بيتروكلس، لماذا نحن الرجال نقول على الدوام كي نشجّع أنفسنا: «لقد شاهدت أسوأ من هذا» في وقت ينبغي أن نقول: «إن الأسوأ سيأتي، سيأتي في اليوم الذي نجيء به»؟

بيتروكلس: يا أخيل، لم أعد أعرفك.

أخيل: لكنني أنا أعرفك. لا يكفي القليل من النبيذ كي يموت بيتروكلس. فهذا المساء أعلم أن بعد كل هذا لم يعد ثمة فرق بيننا وبين الرجال الأوغاد، ثمة شيء سيئ للجميع. إن هذا الشيء أتى أخيراً، سيأتي بعد كل شيء ويغلق لك فمك مثلما تغلقه قبضة تراب. من الأجمل دائماً أن نتذكر: «رأيت هذا، واحتملت ذلك الآخر» أليس إثما أننا لا يمكن أن نتذكر الأشياء بكل قساوتها؟

بيتروكلس: على الأقل سيمكن لأحد منّا أن يتذكرها من أجل الآخر. إننا نأمل هذا، سوف نلعب لعبة القدر.

أخيل: ولهذا يحتسى النبيذ في الليل، ألم تفكر يوماً أن الطفل لا يشرب، ففي حياته وعقله، لا وجود لظاهرة الموت؟ أنت يا بيتروكلس ألم تشرب وأنت ما زلت بعد صبياً؟

بيتروكلس: لم أقم بأيّ شيء من هذا القبيل، إلا بعد أن كنت معك ومثلما تفعل الآن.

أخيل: أعني، حينما كنا سوية نلعب ونمضي إلى الصيد، وكان النهار قصيراً لكن السنوات لم تكن تمضي أبداً. هل كنت تعرف ماذا كان الموت، أعني موتك؟ ذلك لأن الصبيان قد يتقاتلون لكن الجميع يجهل ما هو الموت، ثم يأتي فجأة لنعرف أننا في حضرته ووقتها نكون قد انتهينا. صراع الحلبات والألعاب وحفلات شرب الخمر، بعضها كان ينقضي بانقضاء الليل وينتهي بالتذمر. وأنت، ألم تشاهد في حياتك صبياً ثملاً؟

بيتروكلس: تساءلت أحياناً، متى كانت المرة الأولى. لا أعلم، لا أتذكر، يبدو لي وكأنني

قد ثملت بلا انقطاع، وتجاهلت الموت.

أخيل: يا «بيترو» إنك في أحيان كثيرة تشبه طفلاً.

بيتروكلس: لتسأل عن هذا أعداءك يا أخيل.

أخيل: سأقوم بذلك. لكن بالنسبة لك فلا وجود للموت. ليس مقاتلاً مقداماً من لا يرهبه الموت.

بيتروكلس: ومع ذلك ها أنا ذا أحتسي الشراب، هذا المساء.

أخيل: أوليس لك ذكريات، يا «بيترو»؟ لا تقل أبداً: «هذا فعلته، هذا شاهدته» اسأل ما الذي قمت به حقاً، ماذا كانت حياتك، وما الذي تركته فيك هذه الحياة من أثر فوق الأرض وفي البحار؟ فما الذي يعنيه مرور الأيام إن لم تتذكر؟

بيتروكلس: حينما كنا صبيين، يا أخيل، لم نكن نذكر شيئاً. كان يكفينا أن نبقى سوية طيلة الوقت.

أخيل: أنا أتساءل إن كان ثمة في «تساليا» من يتذكر إلى الآن؟ حينما سيعود الرفاق من هذه الحرب هناك، في منحدرات الهضاب من سيمر فوق تلك الدروب التي سلكناها من قبل، من سيعرف إننا أيضاً كنّا هنا ذات يوم، وكنا صبيين مثلما احتوانا الآن الآخرون وكانوا معنا. هل سيعرف هذا أولئك الصبيان الذين يكبرون الآن ما الذي ينتظرهم كما عرفنا نحن؟

بيتروكلس: إن الصبيان لا يفكرون مثلنا.

أخيل: ثمة أيام يتوجب أن تولد فيها أشياء كثيرة من جديد، ولن نراها.

بيتروكلس: ألم نشاهد قبلها أياماً عديدة؟

أخيل: لا يا «بيترو» ليس الكثير. سيأتي اليوم الذي نكون فيه جثثاً هامدة. وستكون ثغورنا قد أغلقتها حفنات التراب. ولن نعرف ما رأيناه.

بيتروكلس: إن التفكير في هذا لا يجدي نفعاً.

أخيل: لم لا يمكن التفكير بهذا يا ترى؟ حينما كنّا صبياناً كالسرمديين كنا ننظر

ونضحك. لم يكن أحد منا يميز النافع من الضار. لم يكن أحد منا قد تعرف على المشقة والأحزان. كنا نتقاتل ونحن نلعب، ونسقط فوق الأرض مثل الأموات، فيأخذنا الضحك لنستأنف رحلة اللعب من جديد.

بيتروكلس: كانت لنا ألعاب أخرى، الأسرة والغنيمة، وأيضاً الأعداء، وخمرة هذه الليلة. يا أخيل، متى العودة إلى تلك الحقول؟

أخيل: سنعود، هذا مؤكد، فثمة قدر قادم ينتظرنا. وحين تشاهد السفن ملتهبة ستكون قد حلت الساعة.

بيتروكلس: وعند هذا الحد؟

أخيل: لماذا؟ أيخيفك؟ ألم تشاهد أسوأ من هذا؟

بيتروكلس: إن الدهشة تتملكني، ونحن هنا نحاول الإفلات منها، وحبّذا لو يكون ذلك غداً.

أخيل: لا تكن عجولاً، يا «بيترو». لتترك قولك «غداً» إلى الآلهة. سيكون لهذه الآلهة فحسب ما كان على الدوام.

بيتروكلس: ولكن إذا ما شاهدنا الأسوأ فلأن ذلك يعتمد علينا. لنشرب حتى النهاية لنشرب يا أخيل. سوف نعود كي نجازف بحياتنا من جديد.

أخيل: لنشرب نخب الفانين والسرمديين، يا «بيترو». لنشرب نخب أبي وأمي، نحب ما كان والذكرى، ولنشرب نخبنا نحن.

بيتروكلس: إنك تتذكر أشياء عديدة.

أخيل: ليس أكثر من أن أتذكر امرأة، أو شحاذاً كانا حبيبين إلى قلبي.

بيتروكلس: أنت ثري يا أخيل، والثروة بالنسبة لك مجرد خرقة ترمى. إنك وحدك من يمكنك القول بأنه كان شحاذاً. أنت يا من اقتحمت صخرة «التنيدو» أنت يا من جزّأ حوض الأمازون، وصارع الدببة فوق الجبال أي طفل آخر غيرك قمطته أمه في لهيب النيران؟ أنت السيف والسهم، يا أخيل.

أخيل: إذا ما استثنينا النار، فقد كنت معي على الدوام.

بيتروكلس: مثلما ترافق الظلال السحابة. مثل «تسيو» و«بيريتو». لعله ينتظرك ذات يوم، يا أخيل، فأنت ستأتي إلى عالم الأموات كي تحررني. وسنشاهد حتى هذا معاً.

أخيل: لقد كان هناك زمن لم يكن فيه عالم الأموات أفضل. وقتها كنا نذهب إلى الغابات، ونقترب من الشلالات، ونستحمّ في عرقنا المتصبب، كنّا فتياناً. كل حركة وكل إشارة لم تكن لتتجاوز اللعب. أتذكر كيف كنا وكيف كان الجميع يتجاهلنا. أكنّا شجعاناً؟ لا أعلم ذلك. فمثل هذا الأمر لا يهم. أعرف أن فوق جبل السنطور كان الصيف والشتاء، كانت هنالك فوق الجبل حياة عامرة. كنّا سرمديين.

بيتروكلس: وبعدها جاءت سحابات السوء، جاءت المجازفة، وجاء الموت، وعندها صرنا مقاتلين.

أخيل: لا مهرب من القدر. آه، لماذا لم أبق فوق الجزيرة وسط النساء؟

بيتروكلس: ستكون لك ذكريات بائسة، يا أخيل. ستكون فتى. من الأفضل أن نعاني بدلاً من ألاّ نوجد.

أخيل: لكن من قال لك بأن هذا يمثل الحياة؟ آه يا «بيترو». إن الحياة تكرهنا على رؤية ما سيجيء من السوء.

بيتروكلس: أنا سأخرج غداً إلى الحقل، معك.

أخيل: لم يأت حتى الآن يومي.

بيتروكلس: إذن سأذهب بمفردي، وسوف أجعلك تشعر بالخجل إذ سأذهب حاملاً سهمك.

أخيل: أنا لم أولد بعد، حين أسقطوا شجرة السنديان. تمنيت أن أشاهد الوادي الذي بقي لنا.

بيتروكلس: انزل إلى الحقل وستراه آهلاً بك. وبالعديد من الأعداء، والجذوع.

أخيل: لم تلتهب السفن بعد.

بيتروكلس: سأحمل عدتك وعتادك، وستكون كلّك في ذراعي. لا شيء يمكنه أن يمزقني. سأكون مستعداً للمعارك والألعاب.

أخيل: إنك بحق ذلك الطفل الذي يسكر.

بيتروكلس: حينما كنت تعدو مع السنطور، يا أخيل، لم تكن تفكر في الذكريات. ولم تكن بعد سرمدياً كما أنت عليه هذه الليلة.

أخيل: وحدها الآلهة تعرف الأقدار، ومعها تعيش. أما أنت فتلعب بالنصيب.

بيتروكلس: لتشرب مرة أخرى معي، وغداً كذلك. وحبذا لو كان اللقاء في عالم الأموات، عندها سنتحدث أيضاً عن هذه الأمور.

●●●

الطريــق

الكل يعلم أن «أوديب» انتصر على «أبو الهول» وتزوّج «إيوكاستا»، واكتشف، وهو يتثبت مع الراعي الذي أنقذه فوق «السيترونا»، من كانت تلك الزوجة. عندئذ فإن قتل الأب، وزواجه من الأم كان أمراً حقيقياً، فقد فقأ أوديب عينيه بسبب الرعب الذي اجتاحه بكل دواخله، فهجر مملكة طيبة ومات شريداً.

(حوار بين أوديب والشحاذ)

أوديب: يا صديقي، أنا لست رجلاً كالآخرين. لقد عاقبني النصيب. كنت قد ولدت كي أحكم بينكم. ترعرعت فوق الجبال. كانت مشاهدتي لجبل أو لبرج تحييني مرات ومرات. وكذلك عندما أشاهد مدينة عن بعد، فكنت كمن يمشي بين الغبار، ولم أكن أعلم بأنني بذلك رحت أبحث عن قدري المجهول. الآن لم أعد أشاهد شيئاً، ولم تعد الجبال سوى مشقّة، كل ما أقوم به لا يتجاوز هذا القدر المرسوم. أتفهم؟

الشحاذ: أنا شيخ هرم، يا أوديب. لم أشاهد سوى أقدار. لكن، لتصدقني، إن الآخرين، أولئك الذين هم بمنزلة الخدم، أو حتى أولئك القاصرين في فكرهم وروحهم الذين يتعكزون على الآخرين، ألن يندهشوا لو غدوا ملوكاً لمملكة طيبة مثلك؟

أوديب: لتفهمني، أيها الصديق. لم يكن نيلي هذا النصيب الذي أنا فيه لأني أضعت شيئاً ما. فلا الأعوام ولا العمى بإمكانها أن تخيفني. أتمنى الهبوط بعيداً نحو العوالم السفلية، إني أريد فقدان كل شيء. ذلك هو القدر الشامل الذي ظل ينتظرني. قدر ألا أكون ذلك الأوديب الذي كان، وألا أكون ذاك الرجل الذي كان عليه أن يحكم دون أن يدري.

الشحاذ: لا أفهم. فلتحمد الله أنك كنت سيّداً أكل وشرب وغفا فوق فراش النّوم الوثير، أما من مات فحاله أسوأ.

أوديب: ليس هذا هو الأمر، أقول لك. كان شيء ما منذ البداية يسري بجنبي، منذ أن كنت شيئاً مذكوراً. كان بوسعي أن أكون رجلاً كباقي الرجال، إلا أن ما حصل، كان شيئاً آخر. كان ثمة نصيب يترصدني، فتوجب عليّ أن أغادر، وأتوجه إلى مملكة طيبة بالذات. وهناك بالضبط كان عليّ أن أقتل العجوز، وأرزق بأولئك الأبناء. أيستحق هذا القدر من العناء أن تفعل شيئاً كان قد

كُتب قبل أن توجد؟

الشحاذ: يا أوديب إن ذلك يستحق العناء. فالأمر يتعلق بوجودنا وهذا يكفينا. فلتترك باقي الأمور إلى الآلهة لتقرر هي المصائر.

أوديب: لم تكن في حياتي آلهة. إن ما يصيبني هو أكثر قسوة حتى من الآلهة. كنت جاهلاً مثل الجميع بأن ما أفعله هو عين الصواب. ولكي أجد في الأيام ما يمنحني السلوى، والأمل، أواصل عمل المزيد. فلا يخلو قلب من هذه الأمنية حتى قلب الفاجر. كانت ترافقني شكوك كثيرة، أصوات مبهمة، وتهديدات. في بداية الأمر ظننت أنها لا تعدو أن تكون مجرد حالة من الإلهام. أو كلمة حزينة. كنت أتمنى لو تختفي هذه الحال يوماً ما. قضيت كل تلك السنوات مثل مولّي الأدبار حين يحدق طويلاً في أكتاف الآخرين. تجاسرت أن أصدق فقط أفكاري في لحظات الهدنة، في أوقات الصحو التي كانت تفاجئني. كنت أبداً متنبهاً دوماً للكمائن. ولم أختف فقد كان القدر الذي تجلّى أمامي يقترب من نهايته.

الشحاذ: لكن، يا أوديب، هكذا هو الأمر للجميع. أعني القدر المتربّص بنا على الدوام. وفي حالتك كان الأمر فادحاً.

أوديب: كلاّ، أنت لا تفهم، ليست هذه هي القضية. أتمنى لو كانت تلك الأحوال التي صادفتها أكثر فداحة، أتمنى لو أنني كنت الرجل الأكثر قذارة والأشد نذالة شرط أن يكون ما أقوم به قد أردته حقاً. وليس حين أقوم بشيء أجدني أتمنى القيام بأمر آخر. ما الذي يعنيه مرة أخرى أيتها النفس، وماذا نكون نحن جميعاً؟ فحتى الرغبة الدفينة في دمائك كانت قد وُجدت قبل مولدك، وكان كل شيء قد قيل.

الشحاذ: متيسر كل ذلك، إلا أنك يا أوديب قد تمتعت بأيام جميلة.لا أعني حينما انتصرت على «أبو الهول» وكانت مملكة بأكملها تبايعك. أو حينما رزقت بأول مولود وكنت وقتها جالساً في القصر تصغي إلى المجلس. ففي هذه

الأمور لم تعد قادراً على أن تفكّر بشكل أفضل مما كان، لكن مع ذلك فقد عشت حياة الجميع. كنت صبياً: شاهدت العالم، فرحت ولعبت، تحدثت وتحديت، ولم يكن كل ذلك خالياً من الحكمة والتروّي. تمتعت بأشياء كثيرة، جبت كل الطرقات والآن أنت ضرير حسناً، لكنك شاهدت أياماً أخرى.

أوديب: سأكون مجنوناً، لو نفيت هذا. كانت حياتي طويلة وعامرة، لكن أقول لك مرة أخرى: ولدت كي أحكم بينكم. ومن يشعر بالحمى فأطيب الفاكهة لا تمنحه سوى الهذيان والقرف. والحمّى التي تتلبسني هي دائي الأبدي. فالارتجاف، هو الرعب الدائم لكي تنفذ النفس إلى ما هو معروف. أنا كنت أعلم وعلمت على الدوام كيف أفعل، مثلما يتصرف السنجاب الذي يعتقد أنه يتسلق في حين لا يقوم إلا بتدوير القفص. وأنا أتساءل: من كان أوديب؟

الشحاذ: إنه سيد عظيم وواقعي، يمكنك أن تقول هذا. إني كنت أسمعهم يتحدثون عنك في الطرقات والحارات، وعند أبواب مملكة طيبة، كان ثمة من هجر بيته، ودار حول «بيوتزي»، وذهب ليشاهد البحر. ولكي يمتلك نصيباً مثل نصيبك فقد مضى بعض منهم إلى «دلفى» لينازلوا أبا الهول، ولينتصروا عليه. هكذا تعرف أن قدرك كان شديد الغرابة بحيث قاد آخرين إلى البحث عنه. ما الذي سيقوله من ناحية أخرى رجل عاش طيلة حياته في قرية فوق أحد الدروب المهجورة النائية بحيث لم يكن ليقوم إلا بحركة واحدة كل يوم، وله الأولاد ذاتهم، الاحتفالات ذاتها، ويموت عادة في عمر أبيه وبصورة سيئة؟

أوديب: لست رجلاً مثل الآخرين، إن هذا أمر أعرفه جيداً. لكنني أعلم أن خادم القوم أو حتى الأبله منهم لو علم بأيامه فلا بد له أن يتقزز حتى من تلك البهجات البائسة التي يجد نفسه محاطاً بها. إن التعساء الذين راحوا يبحثون عن نصيب شبيه، هل أنقذهم بحثهم يا ترى؟

الشحاذ: إن الحياة رائعة يا أوديب. أنا الذي يتكلم معك الآن، كنت مع هؤلاء، هجرت

بيتي، ضربت في أرض اليونان طولاً وعرضاً، شاهدت «دلفى»، وبلغت البحر. كنت أتمنى أن يحالفني الحظ، وأتمكن من «أبو الهول». كنت أعلم أنك كنت سعيداً في مملكة طيبة. كنت رجلاً مكتملاً جسدياً وفكرياً، آنذاك. وحتى وإن لم يصادفني «أبو الهول» ولم يحدثني وحيٌ عنه فقد عشقت الحياة التي عشتها. أنت نفسك يا أوديب كنت ملهمي. أنت أضعت لي نصيبي، الشحاذة أو الحكم وما الذي يهم بعد هذا؟ فكلانا قد عاش لنترك سوية الأشياء الأخرى لحكم الآلهة.

أوديب: لكن فلتعلم أن ما قمت به كنت قد تمنيته. هذا الإنهاك المترامي صامت ومريح وكأنه ينحدر من الأشياء ليصل إلى سويداء القلب، وتلك الراحة المترامية المنفلتة تجيء بعد أن تحصل الاضطرابات التي يؤججها النصيب، هي ربما الشيء الوحيد الذي يعود لنا حقاً.

الشحاذ: يا أوديب، ذات يوم، لم نكن نحن، ولم تكن الرغبات التي يحملها القلب، ولا الدم ولا الصحوات التي خرجت من العدم. الأفضل أن نعرف هذا وأن نحيا متشبّثين بما يمليه الوحي علينا.

أوديب: ما دام هناك بحث يا صديقي فإن ما تقوله صحيح. إنك كنت محظوظاً بأنك لم تفز أبداً. ولكن سيأتي اليوم الذي تعود فيه إلى «السيترونا»، وبعدها لن تفكر بهذا الجبل الذي يمثل لك ما يمثله لي، إنه طفولة أخرى تراها كل يوم وربما تتسلّقها، ويقول لك أحدهم بأنك ولدت في الأعالي وكل شيء يتداعى.

الشحاذ: أفهمك يا أوديب، ولكن لنا جميعاً جبل الطفولة.

أوديب: إن الكلام يا صديقي شيء والمعاناة شيء آخر. لكن المؤكد أن الكلام شيء يضطرم في القلب. الكلام شيء عابر مثل الذهاب في الطرقات بدون غاية، وأنت تحدثت طويلاً وشاهدت كثيراً، أحقاً كنت تريد أن تحكم؟

الشحاذ: لكن الكلام يساعدنا من جديد أن نكتشف ونتآلف ونتصالح مع أنفسنا.

أوديب: وهل لك عائلة؟ هل لك أحد؟ أما أنا فلا أعتقد.

الشحاذ: لن أكون ذلك الذي أنا عليه.

أوديب: إن الجدالات والحوارات والأحاديث الأكثر واقعية هي تلك التي نقوم بها صدفة.

الشحاذ: إنك تنسى على الأقل خطاباً من الخطابات التي ألقيتها مرّة عندما كنت ملكاً.

أوديب: أي الخطابات، أيها الصديق؟

الشحاذ: ذلك الذي ألقيته على قارعة طريق وأنت تسير نحو «أبو الهول».

●●●

الصخـــرة

في تاريخ العالم كانت الحقبة «الهرقلية» مأهولة بالرجال. والعفاريت والآلهة لم تكن قد انتظمت بعد في «الأولمب». لا بل إن بعضهم كان لا يؤمن بوجود العفاريت، إذ لم تكن تعني هذه المخلوقات لدى بعضهم سوى ذكاء منفلق في جسد مشوّه وبهيمي. ومن هذه الشكوك أن يكون العديد من قتلة العفاريت –«هرقل» على رأسهم– قد أهدروا دماء شقيقه.

(حوار بين هرقل وبروميثوس)

هرقل: يا بروميثوس، جئت لأطلق سراحك.

بروميثوس: أعرف هذا وكنت في انتظارك. يجب عليّ أن أشكرك، يا هرقل، فقد قطعت طريقاً مليئاً بالأهوال، لكي تصل صعوداً إلى هنا. لكنك تجهل ماذا يعني الخوف.

هرقل: إنّ حالتك هي الأكثر رعباً، يا بروميثوس.

بروميثوس: أأنت حقاً لا تعرف الخوف؟ أما أنا فلا أعتقد ذلك.

هرقل: إن يكن خوفاً ألا أنفذ ما ينبغي عليّ فهذا عالم جربته وخبرته. لكنني إنسان، لا أعرف يا بروميثوس دائماً ما ينبغي القيام به.

بروميثوس: إن الإنسان في كل الأحوال يتشكّل من رحمة وخوف وليس ثمة شيء آخر.

هرقل: يا بروميثوس، أنت تحتفظ بي في مخيلتك كوني عاجزاً، وكل هنيهة تمضي يستمر أسرك بين هذه الأغلال، لقد جئت لأحررك.

بروميثوس: أعرف هذا يا هرقل. كنت أعرف به مذ كنت جنيناً في الأحشاء، حينما لم تكن جئت أنت بعد إلى هذه الدنيا. لكن يحدث لي مثلما يحدث لرجل عانى كثيراً في ذات المكان، في سجن، في منفى، في خطر محدق، وحين تأتي لحظة الخروج من ذلك المكان لا يستطيع أحد أن يتعرف على كيفية العبور إلى تلك اللحظة المتوقدة، وأن يترك خلفه حياة المعاناة، والألم والحسرة.

هرقل: ألا تريد أن تترك صخرتك؟

بروميثوس: ينبغي أن أتركها يا هرقل. قلت لك بأنني كنت بانتظارك، لكن ولأني أتحدث إلى رجل مثلك تثقلني اللحظة المتوقدة تلك. إنك تعرف أن المعاناة هنا فادحة ومرعبة في الوقت نفسه.

هرقل: يكفي النظر إلى حالك المزرية يا بروميثوس.

بروميثوس: إنها معاناة تجعل المرء يتمنى الموت. ذات يوم، ستعرف أنت أيضاً ما الذي أقوله الآن وستصعد فوق صخرة ما. لكن أنا يا هرقل لا يمكنني أن أموت ولا حتى أنت يمكنك أن تموت.

هرقل: ماذا تقول؟

بروميثوس: سيتجلى لك رب لأجل إحدى الربات.

هرقل: لا أدري، لتتركني يا بروميثوس أحلّ وثاقك وقيدك.

بروميثوس: وأنت ستكون مثل طفل مليء بالامتنان الحقيقي، وستبتسم من الأعماق للمخاوف وللمتاعب، وستحيا بسلام تحت لحاف السماء مانحاً الآلهة علمها وطيبتها.

هرقل: ألا يصيبنا كل شيء بسببهم؟

بروميثوس: آه يا هرقل، ثمة معرفة أكثر قدماً من هذا الذي تقوله. إن العالم قديم، فهو أقدم من هذه الصخرة. وحتى هم، أعني الأرباب، يعرفون ذلك. كل شيء له نصيبه. لكن الأرباب ما زالوا يافعين مثلك.

هرقل: ألست واحداً منهم؟

بروميثوس: سأكون كذلك مرة أخرى، فكل ما يريده النصيب سيقع حتماً. لكن ذات يوم كنت ربّاً للفنون، وعشت في عالم دونما آلهة. أتخيل أن مثل هذا الأمر قد حدث في زمن ما. ألا يمكنك التفكير به في عالم مشابه؟

هرقل: أليس هو عالم العفاريت والفوضى والصخب؟

بروميثوس: إنه عالم الآلهة والرجال، يا هرقل، عالم الوحوش والأحراش، عالم البحار والسماوات. إنه عالم الصراع والدماء الذي جعل منك من تكون الآن. بل وحتى الأرباب، فالرب الأكثر شبها آنذاك كان رب الإلهام. ليس ثمة شيء ذو بال، في عالم الحاضر والآتي إن لم يكن هو الرب الملهم.

هرقل: كأنه عالم صخور هذا الذي تتحدث عنه الآن.

بروميثوس: كل منكم له صخرته، أنتم أيها الرجال، ولهذا أحببتكم. إن الآلهة فقط

هي التي لا تعرف الصخرة وعذاباتها. لا تعرف ضحكاً ولا بكاء تمتلكها الابتسامة أمام الأقدار.

هرقل: إنها هي من قيدتك.

بروميثوس: آه يا هرقل، إن الرب هو الغالب أبداً. منذ أن صارع الإنسان وحيه بقسوة متناهية وأليمة يمكنك عند ذاك الضحك أو البكاء، وسيقيدونك حين تتسلق الجبال وهذا هو النصر الذي وهبك إياه النصيب الذي أنت به الآن. ينبغي أن نكون شاكرين. فماذا يعني النصر إن لم يكن هناك مكان للرحمة في أي حركة نفعلها ونخطوها؟ ما الذي ينفع الآخرين من تحمل الأعباء؟ فكل واحد يعمل للآخر، وفقاً لما يريده نصيب كل منّا. هرقل إذا ما أطلق اليوم سراحي فهذا يحدث لأن آخر سيأخذ مكاني.

هرقل: لا تقلق فقد رأيت أسوأ من هذا إلا أني لم أطلق سراحك حتى الآن..

بروميثوس: يا هرقل، لا أتكلم عنك. فأنت رحيم وشجاع لكنك أديت واجبك قبل هذا.

هرقل: إنني لم أقم بشيء حتى الآن، يا بروميثوس.

بروميثوس: إنك لن تكون فانياً لو اعترفت بالنصيب الذي سيأتي إليك.
لكنك تحيا في عالم الآلهة. وقد منعت عنكم الآلهة حتى هذا. إنك لا تعرف شيئاً وقبل هذا كنت قد فعلت كل شيء لتتذكر السنطور.

هرقل: أهو الرجل الوحش الذي قتلته هذا الصباح؟

بروميثوس: لا تقتل العفاريت. فليس لأحد قتلها حتى الآلهة. سيأتي يوم تعتقد فيه أنك قتلت وحشاً أكثر بهيمية، إلا أنك فقط ستكون قد هيأت صخرتك التي هي نصيبك القادم. أتدري من قتلته هذا الصباح؟

هرقل: لقد قتلت السنطور.

بروميثوس: لا، بل إنك قتلت «كيرونا» الرحيم، إنه الصديق الأفضل لربات الإلهام ولكل الفانين من البشر.

هرقل: آه يا بروميثوس.

بروميثوس: لا تحزن، يا هرقل. فكلنا يحمل ذنباً بين جوانحه. إنه قانون الحياة، فلا أحد قادر أن يتحرر إن لم يُرق دم الآخر. وسيحدث لك أيضاً الشيء ذاته يوماً ما، كما حصل لـ«كيرونا» الذي كان يعلم بمصيره.

هرقل: أتعني أنه تقدم؟

بروميثوس: مُتأكد. مثلما كان ذلك في وقت مضى، وقت كنت أعلم فيه بأن سرقة النار سوف تكون صخرتي التي تثقل كاهلي.

هرقل: يا بروميثوس، لتتركني أفك قيودك ثم بعدها أخبرني بكل شيء عن «كيرونا» و«أويتا».

بروميثوس: لقد كنت طليقاً قبل الآن، يا هرقل. فقد أمكنني أن أكون طليقاً لأن الآخر حلّ مكاني وأنت قتلت «كيرونا»، وهذا يعني أن النصيب كان في طريقه للقدوم. لكن في هذا العالم الذي ولد من الفوضى يتحتم أن يحكم قانون العدالة، والرحمة، والخوف. أما الشجاعة فهي مجرد وسيلة لا غير. لا شيء يهم إن لم يرجع مرة أخرى. إن الدم الذي أهدرته أنت سوف يدفعك في النهاية نحو جبل «أويتا» وتموت موتتك. وسيكون دمك من دماء العفاريت التي تدعوها، وأنت تحيا الآن من أجل أن تدمرها. وستصعد فوق كبّة اللهب المشتعلة مضطرماً في النار التي أنا سرقتها.

هرقل: لكنك قلت لي بأن الموت لا يقترب مني.

بروميثوس: إن الموت أحياناً هو الطريق من أجل الدخول في هذا العالم مع الآلهة، وأنتم أيها الفانون من البشر تخافون الموت. فبقدر ما تشبهون الآلهة إلا أنكم تعرفون أنكم سرمديون خالدون مدى الدهر. لكن لكل منكم الموتة التي يستحقها، إذ سينتهون هم كذلك.

هرقل: ماذا تقول؟

بروميثوس: لا يمكن للمرء أن يقول كل شيء. لكن لتتذكر دائماً إن العفاريت لا تموت،

ذلك الذي يموت هو الخوف الذي يخلقونه فيك، مثلما تفعل الآلهة. وحين يتوقف الفانون من البشر عن الخوف فسوف تختفي الآلهة.

هرقل: وهل سترجع آلهة الوحي؟

بروميثوس: لن تعود الأحجار والغابات، فهي موجودة على الدوام وستبقى، وما كان الآن سيصير على الدوام.

هرقل: لكن ربما لم تزل أنت مسحوراً.

بروميثوس: إننا مجرد أسماء، وليس شيئاً آخر كما تظن ويظن بعضهم. هل تفهمني، يا هرقل؟ إن العالم له فصول من الزمن مثل الحقول والأرض. فالشتاء يعود والصيف يعود. فمن يمكنه القول إن الغابات ستهلك؟ أو تبقى ذاتها؟ أنتم ستكونون بعد، وقليلة هي تلك الآلهة الملهمة.

هرقل: نحن الفانين من البشر؟

بروميثوس: أنتم الفانون، أو السرمديون الخالدون، فالأمر سواء.

●●●

ذلك الذي لا يتقبل العزاء

إن الجنس والثمالة والدم دائماً ما أرادت العالم الأرضي ووعدت بأكثر من عالم مثالي. لكن «أورفيو»، المغني الجوّال في عالم الأموات، هو ضحية ممزقة ومشتتة مثل «ديونيسو»، الذي يظل هو الأكثر أهمية.

(حوار بين أورفيو وباكا)

أورفيو: هكذا انتهت، صعدنا الدرب بين غابات تكتنفها الظلال والعتمة، وقبلها كان «كوجيتو» و«أستيجا» بعيدين وأسيري القوارب المهاجرة والشكاوى المريرة. وفوق الأوراق كنا نلمح آخر شعاع تطلقه السماء، إلا أني وفوق أحد كتفيّ أحسست بضجيج خطاه، لكنني كنت لا أزال هناك في المنحدرات الوعرة. كان البرد يقتحمني بقساوته. كنت أفكر بأنني لا بد أن أعود ذات يوم وأن ما حصل سيبقى ويتواصل مرة أخرى. كنت أفكّر في حياتي معها مثلما حدث في بداية الأمر، وإنها ستنتهي في المرة الأخرى. فهذا الذي كان معها ومضى لعله سيتحقق في المستقبل أيضاً. كنت أفكر في ذلك الجليد الأبيض، في ذلك الفراغ الذي عبرته والذي حملته في عظامها، في نخاعها، وفي دمها. أكان ذلك الأمر يستحق مشقة العودة إلى الحياة ثانية؟ فكرت في هذا مراراً وتكراراً، وكنت ألمح آخر أضواء النهار. عندها رددت مع نفسي «لقد انتهت» ثم التفت إلى الوراء. وإذا بـ«أوريدجنا» تختفي مثل انطفاء شمعة. شعرت بقرقعة لا غير مثل تلك التي تحدثها حركة جرذ مذعور.

باكا: كلمات غريبة يا «أورفيو» أكاد لا أصدقها. لقد قيل هنا بأنك كنت عزيزا ومقربا عند الآلهة وعند ربات الفنون. والعديدات من بيننا يتبعنك لأنهن يعلمن أنك مغرم وتعيس. كنت مغرماً لدرجة اجتياز موانئ العدم وهذا يحدث فقط بين الرجال. كلاّ، لا أعتقد، يا أورفيو، فليس الذنب ذنبك حين يخونك القدر الماحق.

أورفيو: وما دخل القدر هنا؟ فنصيبي لا يخون. من المضحك أن ألتفت إلى خطأ أو إلى تجاوزات وضيعة داستها أقدام الزمن.

باكا: يقال هنا إن تلك الرحلة كانت بسبب الغرام الذي ملأ قلبك.

أورفيو: إن الميت لا يعشق.

باكا: إلا أنك كنت تبكي أيضاً فوق جبال وهضاب ووديان. لقد بحثت عنها ودعوتها وهبطت في عالم الأموات. وماذا كان يعني كل هذا؟

أورفيو: إنك تقولين إنني كباقي الرجال، وأنا أعرف أن الرجل لا يدري ما يفعله حين يأتيه الموت. إن «أورديجنا» التي بكيتها كانت فصلاً من فصول الحياة الجميلة. كنت أبحث عن شيء آخر تماماً هناك في الهضاب ولم يكن الأمر متعلقاً بغرام. كنت أبحث عن عابر تجهله «أورديجنا». عرفت هذا وأنا بين الأموات بينما كنت أنشد أغنيتي الأثيرة. رأيت الظلال تتصلّب فحملقت في الفراغ. إن الشكوى هي الأخرى تنتهي بلا ريب، إلا أن «بيرسيفونا» خبأت وجهها. يا للوجه المعتم الذي لا يمكن تجاوزه! لقد كانت امرأة فانية مثل كلّ البشر لها عادة التنصت. عرفت وقتها أن الأموات لم يعودوا شيئاً يذكر.

باكا: كان الألم قد أرعبك، يا أورفيو. من لا يتمنى الماضي يا أورفيو؟ كادت «أورديجنا» أن تكون وكأنها ولدت من جديد.

أورفيو: بالنسبة لنا فذلك هو الموت مرة أخرى يا باكا. ما نحمله في دمائنا، هو رعب عوالم الموت، فرجفة الدماء تلك تظل تعاشرنا في الليل والنهار، إنك لا تعرفين ما هو العدم.

باكا: وهكذا رحت تغني كي تمتلك الماضي من جديد، ثم دفعت به وحطّمته بعيداً عنك. لا... لا يمكنني أن أصدق.

أورفيو: لتفهميني، يا باكا. لقد كان ماضيا حقيقياً فقط في الغناء. وعادة لم تك تشاهد نفسها إلا وهي مصغية لغنائي. وقبلها، أثناء المسير، كان ذلك الماضي يختفي، ويتلاشى، ويتحول إلى ذكرى. كانت تعلم بأن الموت يقترب منها. حينما لمحت أول أضواء السماء رحت أصعد مثل غلام مبتهج وغير مصدق. صعدت لنفسي وحدها، صعدت لعالم الأحياء. الذي بحثت عنه بكل محبة، كان هنالك في ذلك الضوء. لم يكن يهمني إطلاقاً إن كانت تتبعني. إنّ ماضيّ كان الصفاء، والغناء، وتلك الصباحات المشرقة. رحت بعد هذا الصفاء الذي

امتلأت به أتلفّت حولي.

باكا: كيف استطعت أن تستسلم، يا أورفيو؟ من رآك في عودتك، كان سيرتعب. صارت «أورديجنا» بالنسبة لك بمثابة الوجود كله.

أورفيو: إن الجنون المطبق هو أن «أورديجنا» حين كانت تموت تحولت إلى شيء آخر. أما ذلك الأورفيو الذي هبط إلى عالم الأموات فلم يعد زوجاً. كان بكائي وقتها مثل بكاء الصبايا الذي يثير فرح النفس حينما نتذكره. كان الموسم قد مضى وانتهى، أما أنا فقد كنت أواصل البحث، مأخوذاً بالبكاء. لم أكن أبكي عليها بل على نفسي. كان قدراً سلّمته روحي.

باكا: كثيرات منا كن يسعين وراءك لأنهن كنّ يصدقّن بكاءك الحزين ذاك، فهل خدعتنا يا ترى؟

أورفيو: آه يا باكا، يبدو أنك لا تريدين أن تفهميني تماماً. إن قدري لا يخون. لقد بحثت عن نفسي، فلا بحث إلاّ عنها، فهي النفس وهي الروح.

باكا: لم نعد نمتلك السذاجة يا أورفيو. إننا هنا نؤمن بالحب، والموت ونبكي ونضحك مع الجميع. إن حفلاتنا الأكثر بهجة تتم هناك حيث تسيل الدماء. نحن نساء «تراجا»، لا تخيفنا هذه الأشياء.

أورفيو: لو نظرنا إلى هذا من زاوية الحياة فكل شيء سيكون جميلاً. علينا أن نصدق من كانت بين الأموات. فالأمر ثابت ولا شيء يستحق مثل هذا العناء.

باكا: ذات يوم لم تكن هكذا كما هي الآن، لم تكن تتكلم عن العدم. إن الاقتراب من حالة الموت يجعل المرء أشبه بالآلهة. أنت ذاتك كنت تؤكد أن الثمالة تخلط الحياة بالموت وتجعلنا أكثر نبلاً. إنك شاهدت ذلك المهرجان الاحتفالي وما حواه.

أورفيو: أيتها الفتاة! ليست الدماء هي ما يحسب حسابها، ولا الثمالة ولا الندم هما ما يثيراني. لكن ما يثير حفيظتي هو التفكير في كلمة إنسان. إن هذا الأمر يكاد يصعب تحديده الآن، ولا حتى أنت يا باكا تدركين فحواه.

باكا: بدوننا لن تكون سوى عدم يا أورفيو.

أورفيو: كنت تقولين هذا على الدوام وأنا أعلم به. لكن في النهاية ما الذي يهم؟ بدونكنّ أو معكن هبطت إلى عالم الأموات.

باكا: هبطت إليه من أجل البحث عنها.

أورفيو: ولكني لم أجدكنّ ولم أجدها. كنت قد تمنيت شيئاً آخر تماماً وأنا أعود إلى الضوء الذي وجدته.

باكا: في بعض الأوقات كنت تغني عن «أورديجنا» فوق الجبال.

أورفيو: الزمن يمرّ ويتغير يا باكا. ففي الأعالي الجبلية لم تعد هناك «أورديجنا». إن لهذه الأشياء مسميات، لكنها تدعى إنساناً. إن دعوة الآلهة للاحتفال هنا لن تجدي نفعاً.

باكا: وحتى إن كنت قد دعوت أنا هذه الآلهة.

أورفيو: الجميع قادر على أن يصنع إنساناً ويعطيه حياة ما ليطمح ويريد. الكل يثق في الأيام وما تخبئه من مصائر وأقدار، ويؤمن أن دمه يجري أحياناً حتى في عروق أخرى، ويؤمن أن باستطاعته أن يمحو أشياء كثيرة، ويؤمن أيضاً بتحطيم النصيب الذي يرتقبه عن طريق الثمالة. كل هذا أعرفه وهذا كله لا يعني الشعور بالعدم.

باكا: أنت لا تعرف ماذا تفعل مع الموت، يا أورفيو، وأفكارك هذه هي الموت بذاته. في زمن ما مضى جعلتنا الاحتفالات نصير نساء سرمديات خالدات.

أورفيو: وأنتن فلتتمتعن بمثل هذه الطقوس الاحتفالية. فكل شيء يغدو هيناً لمن لا يفهم ما يجري حتى الآن. وسيكون ضرورياً أن يهبط كل واحد إلى جحيمه ولو مرة واحدة. فقد انتهى نصيبي الموعود ليقبع بعيداً هناك في عالم الموتى. لقد انقضى زمن كنت أغنّي فيه الحياة والموت على سجيتي.

باكا: وما الذي يعنيه بأن النصيب لا يخون؟

أورفيو: يعني أنه داخلك. إنه شيء يخصك أبعد عمقاً من الدم ويتجاوز كل ثمالة،

ولا يمكن لأيّ إله أن يتلمّسه.

باكا: يجوز ذلك، يا أورفيو. لكننا لا نبحث عن أية «أوردجينا». وعلى أية حال فهل سنهبط نحن أيضاً إلى الجحيم؟

أورفيو: في كل مرة يستدعينا فيها الرب نتعرف على الموت ونخوض رحلة الهبوط تباعاً في عالم الموتى لكي نستلّ شيئاً ما، لكي نحطم نصيباً ما. فالموت لا غالب له والضوء يتشتت، ونظل نتجادل مثل مومسات.

باكا: إنك تقول أشياء كريهة. على أية حال هل ضيعت أنت كذلك الضوء؟

أورفيو: كأنني تهت، فرحت أغني وفهمت ما أنا فيه ووجدت نفسي.

باكا: أيستحق كل هذا العناء أن نجد أحدهم بمثل هذه الطريقة؟ ثمة طريق أكثر سهولة تغص بالجهل والبهجة. فالرب أشبه بسيّد بين الحياة والموت يتركنا نتوه في ثمالته، ويتفجّر ويفجّرنا. وكل مرة يصار إلى ميلاد جديد يوقظنا مثلما تستيقظ أنت في النهار.

أورفيو: لا تتكلمي عن النهار، لا تتكلمي عن اليقظة. فالقليل من الرجال يعرفون، ولا أية امرأة مثلك يمكنها أن تعرف ماذا تعني هذه الأمور.

باكا: ربما لهذا نرى نساء «تراجا» يتبعنك، فأنت لهن مثل الرب إذ كنت تهبط من أعالي الجبال وأنت تنشد بأغانيك أشعار الحب والموت.

أورفيو: إنه عبث، فلا يمكن الكلام معك. ربما ذات يوم ستصبحين مثل أي إنسان.

باكا: إذا ما أصاب هذا نساء «تراجا» أو لا.

أورفيو: ماذا؟

باكا: بشرط ألاّ تأخذهن الحمية بتشتيت الآلهة وبعثرتها.

●●●

الرجل الذئب

مسخ «زيوس»، رب الأرباب، «ليكاوني»، سيد «أركاديا» في هيئة ذئب لأنه ليس إنساناً. لكن الأسطورة لا تقول أين وكيف مات.

(حوار بين صيادين)

الصياد الأول: ليست المرة الأولى التي تقتل فيها بهيمة.

الصياد الثاني: لكنها الأولى التي قتلنا فيها رجلاً.

الصياد الأول: ليس من شأننا التفكير في هذا الأمر. إن الكلاب هي التي دفعتنا لفعل ذلك. لا يتعلق الأمر بنا لكي نقول من كان. حينما شاهدناه منحصراً في مواجهة الصخور، شائباً، ودامياً، يقتحم الأوحال بأسنان أشد احمراراً من العيون، فمن كان يفكر باسمه وبتاريخه. لقد مات وهو يعض حربة سلاحه كما لو أنها خيشوم أحد الكلاب الضالة. كان له قلب بهيمة وكان أشعر. من تلك الزاوية في الأحراش لم يكن ممكنا رؤية ذئب شبيه به أكثر ضخامة.

الصياد الثاني: أنا أفكر باسمه، كنت لم أزل فتى، وسمعت من يتحدث عنه. كانوا يروون أشياء لا تصدق عنه. فحين كان رجلاً، أي قبل أن يمسخ، حاول أن يغتال سيد الجبال. وإني متأكد أن الزغب كان يغطي جسده بلون الثلج. كان مثل عجوز أشبه بالشبح، وكانت عيناه حمراوين كالدماء.

الصياد الأول: الآن انقضى كل شيء.
ينبغي دفنه والعودة إلى الوادي. لنفكر في الاحتفال الذي ينتظرنا.

الصياد الثاني: سوف نبدأ المسير فجراً. ما الذي تريد إنجازه غير أن تتدفأ بهذه الأخشاب؟ فمراقبة الجثث هي من مهام الكلاب الشرسة.

الصياد الأول: إنها ليست جثة يا هذا. فهي تبدو وكأنها قطعة من الخشب ينبغي علينا دفنها وإلا أصبحت في ما بعد أكثر صلابة من الحجر.

الصياد الثاني: أتساءل ما إذا كان ينبغي دفنه بعد أن تنتزع جلدته. فذات مرة كان رجلاً إلا أنه أهدر دمه في الأوحال. وستبقى تلك البؤرة العارية من لحم وعظام مثلما هي عند أي عجوز أو حتى عند طفل صغير.

الصياد الأول: تخطئ حين تعتقد بأنه عجوز. كان قبل هذا ذئباً حينما نزل من الجبال غير

المأهولة. كان أكثر قدماً وصلابة من جذوع الأشجار. من يتذكر اسمه يا ترى، أو حتى يتذكّر إن كان شيئاً معتبراً أو معروفاً. إن أردنا أن نكون صادقين فلنقل إنه كان ينبغي أن يموت قبل زمن طويل.

الصياد الثاني: لكن جسده ظل طريحاً. لقد كان صياداً مثلنا.

الصياد الأول: وكما ترى فإن كلاً منا يمكن أن يلقى الموت فوق الجبال بهذه الحال. إن أجساداً كهذه لن تواجه شيئاً سوى المطر والعواصف. إن كان بحق يمْتهن الصيد فقد مات إذن موتة بائسة.

الصياد الثاني: لقد دافع عن نفسه كعجوز، لكنك بأعماقك لا تريد أن تصدق بأنه كان شبيهك. إنك لا تصدق اسمه. فلو صدقته فلن ترغب بالتطاول على الجثة لأنك ستعترف بأنه كان يحتقر الأموات هو أيضاً. لقد عاش قاسياً وعديم الشعور بالإنسانية وليس من قبيل الصدفة أن يحوله سيد الجبال إلى وحش.

الصياد الأول: يحكى عنه أنه كان يطهو أشباهه من الرجال ليأكلهم.

الصياد الثاني: أعرف رجالاً فعلوا أكثر مما فعل، وهم حقاً ذئاب لا ينقصهم سوى العواء والتجوال في الأحراش. هل أنت واثق بأنك لا تشعر كما كان يشعر بنفسه هو؟ إن لنا جميعاً أياماً معدودة في الحياة وإن لم يصبنا الرب فسنعوي وسنكون مثل شوكة في حنجرة من يقاومنا. ما الذي يا ترى ينقذنا إن لم نجد، في أصواتنا المرتقبة ما هو جديد، أهذه الأيدي وهذا الثغر وهذا الصوت؟ لكن إنّ هذا الذي أمامنا الآن لم يكن له أي مهرب، فقد تخلى إلى الأبد عن عطف العيون الإنسانية والأشياء الجميلة. الآن، وبعد أن مات وإلى الأبد، سيتحتّم عليه أن يركن إلى الراحة الأبدية.

الصياد الأول: أنا لا أعتقد أنه بحاجة إلى راحة. مع أنه الآن وبهذه الحال هو أكثر الجميع راحة، حينما يمكنه الوثوب فوق الصخور، والعواء كالذئب لضوء القمر. عشت في الغابات بما فيه الكفاية لكي أعرف كل هذا: إن جذوع الأشجار والوحوش المفترسة لا تخاف ما هو مقدّس، ولا تنظر إلى السماء سوى حين

تقوم بالضوضاء، أو حين تتثاءب. لكن على العكس ثمة شيئاً يساويهم مع سادة السماء. فأي منكر يأتونه لن يشعر أي منهم بتوبيخ الضمير.

الصياد الثاني: من يسمع ما تقول سيعتقد أن للذئب نصيباً أرقى من الذي أصابه.

الصياد الأول: لا أدري إن كان نصيباً بائساً أو راقياً، لكن ألم تسمع ذات يوم أن بهيمة أو نبتة يمكن أن تتحول إلى كائن بشري؟ ثمة من تحول إلى عوسجة، وآخرون إلى طيور، وذئاب وسواء حدث ذلك نتيجة إثم أو جرم فإن المتحول كان قد فاز بأن يديه لم تعد حمراوين وبأنه التجأ إلى نفسه لوخز ضميره وللتطلع إلى السلوى، بعد أن نسي كونه إنساناً. فهل بإمكان الآلهة أن تجرّب شيئاً غير هذا؟

الصياد الثاني: إن الجريمة هي الجريمة، ولا يمكن أن تعطي لمرتكبها بعضاً من الفضول أو تمنع عن الكافر شيئاً من القلق أو من توبيخ الضمير. وحتى البهيمة لو نسيت الماضي، وراحت تعيش فقط ليومها المليء بالرعب، وترقب موتها القادم، فإن اسمها سيبقى كما هو حال «كالستي» ذات المزايا القديمة. فذلك الاسم لا يزال مدفوناً في قاع الهضبة. ولكن يا ترى من كان يعلم ماذا كانت جريمتها لتعاقب بمثل هذه القسوة من سادة السماء. فلقد مسخوها دبّة تزأر وتنتحب بعد أن كانت امرأة جميلة كما يقال. إلا أن نحيبها المؤلم ذاك لم يتوقف إلى الأبد. إذ كانت قبل التحول تسعى جاهدة للعودة إلى بيتها لأن الخوف كان يملأ قلبها وها هي الآن وحش لا يعرف الراحة. ومن ثم وفوق كل هذا الضيم جاء الابن ليغتالها بالسم، ولم تحرك الآلهة ساكناً. وهناك من يقول أيضاً بأن هناك من سعى ليجعل منها مجرّة مع أنهم تركوا الجثة في العراء دون أن يواروها الثرى.

الصياد الأول: ما الذي تريد قوله؟ فأنا أعرف الوقائع بتفاصيلها. فمملكة طيبة لم تعرف الخضوع، وهذا ليس ذنب الآلهة، وهذا الأمر أشبه بمن يمضي مهووساً إلى حتفه، أو يأتي ثملاً إلى مأتم. فلو كنت أنا ذئباً فسأكون حتى في منامي.

الصياد الثاني: أنت تجهل طريق الدماء. والآلهة لا تصل إليك، إلا أنها أيضاً لا تقطع عنك شيئاً. فهي بلمسة خفيفة سحرتك عند وصولها، وما كان لك فهو مجرد رغبة لا غير، مجرد اختيار تكتشفه كنصيب لك، وهو بالتالي يعني التحول إلى مجرد ذئب. ومع ذلك فإنك تصر على كونك من هرب من تلك البيوت البعيدة، وما تبقى أمامك ليس إلا أشياء مجردة مغرقة في القدم.

الصياد الأول: أتقصد بأن «ليكاوني» البائس هذا بعد أن نهشت جثته الكلاب الضالة كان يمكن احتماله كرجل وُهبت له فرصة الصيد مع الكلاب؟

الصياد الثاني: لقد كان هرماً ومعتلاً. أنت بالذات كنت تقول بأنه لم يستطع الدفاع عن نفسه، بينما كان يموت بلا صوت بين الصخور. أما أنا فكنت حينها أفكر بأولئك الشحاذين الذين يتوقفون أحياناً أمام أفنية البيوت، في الوقت الذي تسحب فيه الكلاب سلاسلها كي تنهشهم. وحتى هذا يحدث في البيوت الآمنة التي تتكاثر في المنحدرات. على العموم يمكنك القول أيضاً إنه قد عاش مثل الذئاب، وحين كان يموت ونحن نحدق فيه شعرت تلك اللحظات بأنه إنسان، وقد عكست عيناه تلك المشاعر.

الصياد الأول: يا صديقي أتعتقد بأن الدفن تحت التراب يعنيه الآن؟ وقد كان آخر شيء شاهده رجالاً مثلنا يمضون إلى الصيد؟

الصياد الثاني: ثمة راحة أخيرة يشعر بها المرء بعيداً عن الموت. تبدو وكأنها نصيب مشترك للجميع: للأحياء من البشر، وللذئاب من الحيوانات، ولكل ما يوجد في أعماقنا كذلك. إن كل هذا يدعونا إلى مواصلة الألفة بيننا على الأقل، وترك الشتائم للآلهة، إذ يتحتم علينا العودة إلى بيوتنا بأيادٍ نظيفة.

●●●

الضيف

كانت «لافريجيا» و«ليديا» بلدين أغرم اليونانيون برواية الوحشية عنهما لقصد حسن، إذ كان كل شيء قد انهدّ في بيوتهم، وهذا حدث في أزمنة أكثر قدماً. فعبثاً أن نتذكر ذلك الذي خسر سباق الحصاد.

(حوار بين ليترسي وهرقل)

ليترسي: هذا هو الحقل، أيها الغريب. حتى نحن ضيوف مثلكم، أنتم هنا في بيتكم. ليس بالإمكان أن تهرب من هنا ومثلما أكلت وشربت معنا فستشرب أرضنا دمك ، وسيشهد «الميناندرو» في هذه السنة محصولاً أكثر وفرة.

هرقل: وهل قتلتم الكثيرين فوق هذه الحقول في الأزمنة الماضية؟

ليترسي: بما فيه الكفاية. لكن لا أحد منهم كانت له قوتك، أو كان يكفينا بمفرده. وأنت أيها الرجل ذو الشعر الأحمر، يا من تحمل حدقتي العينين مثل زهرتين، لا بد لك أن تهب العزم لهذه الأرض المعطاء.

هرقل: من علمك هذه العادة؟

ليترسي: كان الأمر هكذا على الدوام، فإن لم تغذ الأرض، فكيف لك أن تطلب منها إطعامك؟

هرقل: قبل هذه السنة بدا لي قمحك أكثر نضجاً، وكان يصل ارتفاعه إلى قامة الحاصد. فمن ذبحتم يا ترى؟

ليترسي: لم يأت إلينا أي من عمال الغابة، فذبحنا عجوزاً خادماً وعنزاً. كانت الدماء تسيل وتشربتها الأرض على الفور. انظر إلى السنبلة، كيف تزهو عابثة. إن الجسد الذي نذبحه نحن يجب أن يتعرّق وينضح تحت الشمس. لهذا سنحرثكم، حاملين الحزم والهمة لإنجاز مثل هذه المهمة، وفقط في النهاية، حينما سينفر دمك حياً مسفوحاً، ستكون اللحظة التي ستفتح فيها حنجرتك. إنك ما زلت يافعاً وقوياً.

هرقل: وآلهتكم ماذا تقول؟

ليترسي: ليس ثمة آلهة فوق هذه الحقول. فهنا الأرض ولا سواها. إنها الأم المعطاء، التي تنتظر أبداً، وتتحرك بعطائها فقط تحت هدير الدماء. وهذا المساء، أيها الغريب، ستكون أنت بالذات عطاءها المرتقب.

هرقل: أنتم سكان «فريجي»، ألا تعرفون المغارات الجبلية وأسرارها؟

ليترسي: نحن نغادرها حالما نولد، وليس هناك ما يدعو للإسراع في العودة إليها.

هرقل: فهمت. وهكذا فإن استباحة الدماء يبدو ضرورياً لآلهتكم.

ليترسي: ليست الآلهة، إنما الأرض أيها الغريب. ألا تحيون أنتم فوق الأرض؟

هرقل: آلهتنا ليست على الأرض إنما هي تساند البحر والأرض، الغابة والسحابة، مثلما يحتفظ الراعي بالبهائم، ومثلما يأمر السادة خدمهم. إنهم مبعدون قابعون هناك فوق الجبال مثل الأفكار خلف عيون المتكلم، أو مثل السحابة في كبد السماء. ليست لهم حاجة إلى الدماء.

ليترسي: لا أفهمك أيها الضيف الغريب. إن السحابة، الصخرة، والمغارة لها جميعاً ذات الاسم بالنسبة إلينا، وهي لا يمكن إزاحتها من الوجود. والدم الذي وهبته لنا الأم نعيده لها عرقاً وامتناناً؟ في المنفى، في الموت. وصحيح أنك تأتي من بعيد إلا أن آلهتكم تلك لا تساوي بالنسبة لنا شيئاً يذكر.

هرقل: إنهم قبيلة من سرمديين خالدين. انتصروا في أحراش الغابات على ما في الأرض من عفاريت. طردوا صوب المغارات كل أمثالك ممن يهدرون الدماء كي يغذّوا الأرض.

ليترسي: آه، انتظر قليلاً لتعرف آلهتك ماذا تفعل، فهي أيضاً تدرك بأنه ينبغي عليها إشباع الأرض. من ناحية أخرى تبدو وكأنك من القوة والصلابة بحيث لا يمكن أن تكون قد ولدت من أرض جائعة لا تشبع.

هرقل: على أية حال يا ليترسي، هل ابتدأ موسم الحصاد؟

ليترسي: أيها الضيف، أنت غريب الطباع. فلم يتفوه أحد قبلك بما تفوهت به أمام هذه الحقول الشاسعة. ألا تخشى الموت فوق كومة الحبوب هذه؟ أتأمل في الهروب فاراً بين الأخاديد مثل طائر السلوى أو مثل السنجاب؟

هرقل: إن صح الأمر، فليس ذلك موتاً إنما عودة إلى الأم، وهو عطاء. وكل هؤلاء القرويين الذين يعرقون، ويكدحون في الحقول سيحيون من جديد مع صلاة

وأغاني من سيهب لهم الدماء. إنه لشرف عظيم.

ليترسي: شكراً أيها الضيف. تيقن أن الخادم الذي نحرناه السنة الماضية لم يكن قد تفوّه بما تقوله الآن. كان عجوزاً وعليلاً، ومع ذلك توجب أن نربطه بالجدائل، ولفترة طويلة ظل يرفس تحت المناجل، وقبل أن يسقط كان جسده ينضح دماً.

هرقل: هذه المرة يا ليترسي، سيكون الأمر أفضل بكثير. لكن، لتقل لي، لماذا قتلتم ذلك التعيس البائس؟ ماذا فعلتم به؟

ليترسي: إنه إلى الآن ما زال شبه حي، وخطوط الدم نهدرها في الحقول، ولا نسمح لها أن تلامس الأم. نحتفظ بالرأس الدامي، ونمسحه بالسنابل والأزهار وفي صخب البهجة التي توقدها الأغاني والأهازيج نلقي بالرأس في مياه نهر «المياندرو»، لأن الأم ليست الأرض وحسب إنما هي كما قلت لك سحابة وماء.

هرقل: أنت يا ليترسي تعرف أشياء عديدة، وليس من دون معنى إنك سيد حقول «سيليني» و «بسينو»، فلتقل لي هل تقتلون الضحايا في أماكن معينة؟

ليترسي: في كل مكان أيها الغريب يتم القتل في وضح النهار. حبوبنا لا تنبت ولا تينع.

هرقل: لكن لماذا ينبغي أن تقتلوا الغرباء؟ الأرض التي خلقتكم ينبغي لها أن تأخذ الأزاميل التي تشبهها. ألا تفضل أنت أيضاً خبز حقلك ونبيذه حين تأكل؟

ليترسي: إنك تعجبني أيها الغريب، فأنت تهتم بصدق نوايانا كما لو كنت ابناً لنا. لكن، فلنتأمل لحظة لماذا تستمر في حديثك حول مشقة ما نفعله، أَلِكي نحيا من خلال تجاوبك مع هذه الأمور التي أطرحها الآن عليك؟ على أية حال من الصواب أن نبقى في الحياة، ونتمتع بالملذات، وأن يموت «الأرون»، فأنت على ما يبدو لست فلاحاً.

هرقل: لكن ألن يكون أكثر عدلاً إيجاد طريقة تضع حداً لقتل الأبرياء، وأن يتمتع

الجميع، مواطنون وغرباء، بحصاد الحبوب؟ فالقتل لا يخصب الأرض، والسحب وقوة الشمس فوق هذا الكوكب ليس لها علاقة بقتل الأبرياء؟

ليترسي: لقد قلت لك بأنك لست فلاحاً، أنا أرى ذلك، لا تعرف حتى أن الأرض تبدأ من جديد مع كل ميلاد لها، وأن دورة السنة تستنفذ كل شيء وتحتاج إلى من يروي عطشها.

هرقل: لكن هل سيكون فوق هذا الكوكب من تغذى، صاعداً ثانية إلى آبائه، من كل تلك الأزاميل ومن كل تلك الفصول ودورانها الزمني؟

ليترسي: أنت تضحكني، أيها الغريب. تبدو وكأنك تتحدث عني. أنا لست الأوحد في «سيليني»، فعبر آبائي وأجدادي عشت أبداً هنا في هذه المنحدرات الجبلية وعلى هذه الهضاب التي تتوسطها الحقول. إني السيد، وأنت تعلم.

هرقل: أتكلم حقاً عنك، فسوف نحصد عطاء موسمك، يا ليترسي. أنت من اليونان، وقد خلقت لهذا العمل الدموي، أما أنا فسأعود هذه الليلة إلى المغارات.

ليترسي: أتريد قتلي فوق حقلي؟

هرقل: أريد أن أقاتل معك حتى الموت.

ليترسي: هل تعرف استخدام المنجل أيها الغريب؟

هرقل: لتكن مطمئناً، يا ليترسي، فكل شيء على ما يرام بالنسبة لي.

ليترسي: بالتأكيد، فلك ذراعان مفتولتان.

هرقل: إن كل شيء على ما يرام.

●●●

النـــيران

قدّم اليونانيون التضحيات الإنسانية أيضاً. وعرفت كل حضارة زراعية هذه التضحيات، فلقد كانت الحضارات كلها زراعية.

(حوار بين اثنين من الرعاة)

الابن: إن الجبل كلّه يحترق.

الأب: يقومون بهذا كي يقال عنهم إنهم فعلوا شيئاً مّا. من المؤكد أن «السيترونا» هذا المساء هو شيء آخر. هذه السنة سنتوجه إلى المراعي في أقصى الهضاب، هل جمعّت البهائم؟

الابن: إن نارنا لا يراها أحد.

الأب: نحن من يرى، ليس ثمة إشكال في هذا الأمر.

الابن: أشاهد نيراناً أكثر من النجوم.

الأب: هيا أوقد النار!

الابن: لقد فعلت.

الأب: آه يا «زيوس»، يا رب الأرباب، فلتتقبل هذه الهدية من الحليب والعسل فنحن رعاة فقراء. فلا يمكننا تقديم هبات من ماشية ليست لنا. إن هذه النيران الحارقة تبعد الشرور، ومثلما يغطيها الدخان تخيم علينا بسحبها المظلمة. فلتستحم وتبتل أيها الفتى. يكفي أن يذبحوا العجول في الزرائب الكبيرة. وحين تمطر، فهي تمطر فوق كل مكان.

الابن: يا أبتِ، أهي نيران أم نجوم تلك التي أراها في أطراف المنحدرات؟

الأب: لا تنظر إلى هناك، ينبغي أن تنظر إلى البحار وكيف تتصاعد الأبخرة الندية منها.

الابن: يا أبتِ، أتمضي الأمطار بعيداً؟ أحقاً هي تمطر في كل مكان حين تبدأ بالهطول؟ حتى فوق «تيسبيا» و«طيبة»؟ إلا أنهم هناك في الوديان الخفيضة لا يملكون بحراً.

الأب: لكن لا تنس أيها الساذج أنهم يمتلكون المراعي، ويحتاجون إلى حفر الآبار. حتى هم هذه الليلة قد أوقدوا فنارات من أكوام الحطب العالية كالآخرين.

الابن: لكن بعد «تيسبيا»؟ وربما أبعد لأن الناس يمشون ليل نهار وهم يتنقلون من جبل إلى آخر، وقد قيل لي إن هناك في الوادي لا تمطر أبداً.

الأب: في كل مكان هذا المساء توجد أكوام الحطب العالية.

الابن: لماذا لا تمطر السماء الآن؟ فهم أوقدوا هذه الأكوام من الحطب.

الأب: إنها الاحتفالات أيها الفتى، فإن هي أمطرت، ينطفئ ذلك الحطب. ومن يا ترى يلائمه ذلك؟ إنها ستمطر غداً.

الابن: ألم تمطر ذات يوم وأكوام الحطب العالية كانت مشتعلة؟

الأب: من يعرف هذا؟ لم تكن أنت ولا حتى أنا قد ولدنا بعد. قبلنا تماماً كانوا يوقدون هذه الأكوام، على الدوام في مثل هذا المساء. يقال إنها أمطرت ذات مرة فوق أكوام الحطب.

الابن: أحقّاً؟

الأب: لكن حدث هذا حين كان الإنسان ينعم بعدالة أكبر مما يتمتع بها اليوم، وقتها حتى أبناء الملك كانوا رعاة هم أيضاً. كل هذه الأرض كانت مثل بيدر كبير نقية ومثمرة، وتخضع لسلطة الملك «أتامانتا». كان الناس يعملون ويعيشون ولا يجدون حاجة لإخفاء الماشية عن الملك. قيل إن ريحاً عاصفة هبت ذات يوم فجفت الحقول، وهلكت الخليقة. ولم تعد أكوام الحطب العالية تنفع في شيء. وقتها طلب الملك «أتامانتا» النصيحة من المجلس. إلا أنه كان شيخاً عجوزاً تقاسمه الفراش فتاة شابة تزوجها حديثاً، وكانت هي الآمر الناهي في المملكة، فراحت توغر صدره وتدفعه حتى لا يقع فريسة التراخي مع رعيته.

الابن: أجل وما الذي تبع هذا..

الأب: لا شيء. إلا أنهم ضحوا بأبنائهم، أتفهم؟ ولكن ليس أبناء الآلهة، فهي بلا أبناء. تصور أيها الابن أن عدداً من أبناء الملك كانوا صبية من زوجته الأولى وكانوا يعملون في الحقول طيلة النهار ولم يتروّ الملك ملياً في الأمر. قرر أن

يستدعيهم، فأدركوا ما يخطّط لهم، فهم ليسوا أغبياء. وهكذا تحتم عليهم أن يقبلوا، باختفاء هؤلاء الأبناء. اختفت أولى السُحب وحالما علم الرب بتفاصيل الحكاية أرسل إلى الريف تلك الساحرة، وحال وصولها قالت: أرأيتم؟ إن الرب كان عادلاً، فقبل الآن كانت هنا سُحب وكان علينا أن ننحر أحداً مّا. ومنذ زمن بعيد قرر الناس أن يلقوا القبض على الملك «أتامانتا» ليحرقوه. أعدوا النيران، أشعلوها، ثم قادوا «أتامانتا» العجوز مقيّداً ومكلّلاً مثلما تكلّل الثيران، وحين هموا برميه في تلك النيران المشتعلة تغيرت فجأة حالة الطقس، وأبرقت وأرعدت السماء، وبعث الرب الأمطار لتولد تلك الحقول من جديد، فلقد أطفأ الماء كومة الحطب العالية التي كانت مشتعلة بانتظار جسد الملك. وبدا «أتامانتا» بعد ذلك مثل رجل كريم، يسامح الجميع، لا بل أبدى تسامحاً سخياً حتى مع زوجته الصغيرة. فلتكن حذراً على الدوام من النساء، أيها الفتى. إنه أمر يسير أن تتعرف الأفعى على الأفعى.

الابن: وماذا حل بأبناء الملك؟

الأب: لم يُعرف عنهم شيء. لكن صبيين مثلهما لا بد أنهما عرفا جيداً ما أقدما عليه.

الابن: وإذا كانوا كما تقول عادلين في ذلك الزمن فلماذا أرادوا أن يحرقوا هذين الصبيين؟

الأب: أنت أبله، لا تعرف ما هي الحرارة المرتفعة الدبقة أنا وجدّك شاهدناها في إحدى المرات. الشتاء لا يعد شيئاً ذا بال إذا ما قيس بتلك الرياح العاصفة التي تتزامن مع مجيئه. الشتاء قاس، لكن مردوده على المزروعات يظل أحياناً ملائماً. أما الحرارة المرتفعة الدبقة فلا، فهذه تحرق المزروعات فيموت كل شيء. ولتعلم بأن الجوع والعطش يشعرانك أكثر بإنسانيتك. فلتأخذ مثلاً من شخص جائع: فمثله كمن يبحث عن الشر. ولتفكر أنت في أولئك الناس المنسجمين في ما بينهم، كل منهم له أرضه، وقد اعتادوا ممارسة الأعمال

الطيبة. ثم فجأة تجف الآبار، وتشتعل الحقول وتحترق الحبوب فيتحولون إلى جياع وعطاش وبذلك يغدون بحق مثل وحوش ضارية، كل واحد منهم يريد افتراس الآخر.

الابن: كانوا أناساً شريرين.

الأب: ليسوا بأشد ضراوة منّا نحن في هذا الزمن. فالريح على الدوام هي المالك، وليس ممكنا أن تمطر السماء مرة واحدة لنتحرر من ظنوننا وأحقادنا.

الابن: لا تعجبني هنا هذه النيران المشتعلة. هل تعتقد أن الآلهة بحاجة إليها؟ أحقّاً أحرقوا لنا آخرين ذات يوم؟

الأب: كانوا يمضون الهوينى. ويأخذون المقعَدين من بيننا ويحرقونهم، وكذلك يفعلون مع الكسالى والبلداء، كانوا يحرقون لنا من لا يجدي نفعاً في الحياة، ومن كان يسرق الحقول، ومهما حدث كان ذلك يسرّ الآلهة التي تبعث بالأمطار.

الابن: لا أفهم أي طعم تجده الآلهة بيننا، ومع ذلك أمطرت السماء. وحتى للملك «أتامانتا» فقد أطفأت الآلهة موقد النار المعدّ لحرقه.

الأب: لتسمع، إن الآلهة هي من تملك الأشياء وتتحكم بها. إنها كباقي المالكين أتريدها أن تشاهد حريق أحد ما بينهم؟ بينما لا أحد يعيننا نحن. ما الذي يهمّ الآلهة إن أمطرت أو لم تمطر؟ ها هم الآن يوقدون النيران، ويقال بأنها تمطر. ما الذي يهم المالكين؟ أرأيتهم ولو لمرة يأتون إلى هذه الحقول؟

الابن: أنا لم أرهم.

الأب: وعلى أية حال، ففي الأزمنة الغابرة كان يكفي وجود أكوام الحطب المهيأة للاشتعال، لكي تمطر السماء. إننا نرى اليوم كيف حرقوا أحد المشرّدين كي يحتفظوا بالمحصول. لكن كم بيتاً للمالكين ينبغي حرقه، وكم منهم ينبغي سحلهم في الطرقات وفي الساحات والمنعطفات، قبل أن يعود العالم ليصبح عادلاً تجاهنا، ويمكننا وقتها أن نصرّح بحقوقنا؟

الابن: والآلهة؟

الأب: وما دخل الآلهة؟

الابن: ألم تقل إن الآلهة والمالكين متحالفون في ما بينهم؟ وكنت تعني بهم السادة.

الأب: حين سننحر عنزاً. فماذا سنفعل بها؟ سوف ننحر المشردين، سنوقد أكوام الحطب العالية.

الابن: أتمنى لو كان هذا الوقت صباحاً لأن الآلهة تخيفني حقاً.

الأب: حسناً ما تفعل. إننا نحتفظ بالآلهة. إن عدم التفكير بالآلهة في مثل عمرك لأمر سيئ.

الابن: أنا لا أريد أن أفكر فيها فهي ليست عادلة يا أبتِ، أعني الآلهة، فما حاجتنا لحرق بشر حيّ؟

الأب: لو لم يفعلوا ذلك فلن يتيسّر لهم أن يتحولوا إلى آلهة. حينما لم يكن ثمة سادة بعد، وكانت العدالة قائمة، توجّب أن يُقتل رجل بين حين وآخر لكي تنتشي الآلهة. هكذا هي الآلهة. لكن في زمننا الحاضر، ليست لها حاجة أو مبرر لفعل ذلك. فنحن كثيرون كما أننا لسنا بخير، إذ يكفي الآلهة أن تنظر إلينا وتراقبنا.

الابن: إنهم مشرّدون أيضاً.

الأب: مشردون. إن ما تقوله الصحيح.

الابن: ماذا كانوا يقولون ويشعرون وهم يحرقون أولئك الصبيان المقعَدين؟ أكانوا يصرخون كثيراً؟

الأب: ليس الموضوع ما يتعلق بالصراخ، فليس من يصرخ هو الذي يهم، إن المقعَد والشرير لا يقومان بأيّ شيء حسن ويكون أحدهما أقل سوءاً حين يكون له أبناء يراهم يترهلون كالبلداء. إن هذا ليس عادلاً أو معقولاً.

الابن: لا يمكنني إلا أن أفكر بتهيئة واحد من أكوام الحطب العالية ذات يوم. لتنظر هناك في أعماق المنحدر كم أوقدوا من تلك الأكوام.

الأب: ما كانوا يحرقون صبياً: لكل موقد نار تماماً مثلما يفعلون الآن مع الماعز. إذا ما استطاع صبي أن يجعل السماء تمطر فسيكون ذلك لأجل الجميع، كان يكفي لهذه البلاد ولهذا الجبل إنسان واحد.

الابن: إني لا أريد ذلك يا أبتِ، أنا لا أريده. إن المالكين لا يفعلون خيراً حين يلتهمون محاصيلنا. هل نكون حقاً غير عادلين حين نفكر على هذا النحو فيهم؟ لا تفعل الآلهة خيراً إن هي نظرت إلينا هكذا بلا حراك، إذ لا يمكن أن نكون أشراراً.

الأب: الآن فلتسقِ المزروعات. إنك ما زلت غافلاً عن أمور كثيرة، ولكنك تعرف تماماً الحديث عما هو عادل وغير عادل. لتتوجه صوب البحر، أيها الأبله. آه يا «زيوس» يا ربّ الأرباب الكبير، فلتأخذ مني هذه الهبة.

●●●

الجـــــزيرة

الكل يعلم أن «أوديسيو» غرقت سفينته في طريق عودته، فمكث تسع سنوات في جزيرة «أوجيجيا»، حيث لم تكن هناك سوى الآلهة القديمة «كاليبزبو»...

(حوار بين أوديسيو وكاليبزبو)

كاليبزبو: يا أوديسيو، ليس ثمة اختلاف كبير. إنك مثلي كذلك تريد التوقف في جزيرة. فقد شاهدت وتحملت كل شيء. أنا ربما ذات يوم سأصرّح بما قاسيته. كلانا متعب، نقاسي أعباء مصير غير منصف انهال على رؤوسنا. يا ترى، لماذا الاستمرار؟ ما الذي يهمك إذا كانت الجزيرة غير تلك التي كنت تبحث عنها؟ لا شيء يحدث هنا إطلاقاً. ثمة القليل من الأرض في الأفق. وهنا يمكنك أن تحيا إلى الأبد.

أوديسيو: حياة سرمدية خالدة.

كاليبزبو: سرمدي من يتقبّل اللحظة، سرمدي من يجهل الغد. لكن إذا أعجبتك العبارة فعليك أن تنطقها. أأنت حقاً مع هذا الرأي؟

أوديسيو: كنت أعتقد بأن السرمدي الخالد هو الذي لا يخشى الموت.

كاليبزبو: من لا يأمل العيش، وأنت تبدو كذلك فقد عانيت طويلاً. لكن لماذا هذه اللهفة للعودة إلى بيتك؟ فما زلت إلى الآن قلقاً. ما الذي يجعل أحاديثك تنحو هذا المنحى حين تتوحد بين الصخور؟

أوديسيو: إذا ما غادرت غداً هذه الجزيرة فهل ستكونين تعيسة لفقداني؟

كاليبزبو: تريد أن تعرف الكثير، يا عزيزي؟ فلنقل إنني أزلية. لكن إذا أنت لم تنبذ ذكرياتك وأحلامك، ولم تتحرّر من أوهام كثيرة وتتطلع نحو الآفاق البعيدة للحياة فلن تتخلص من النصيب الذي تجهله.

أوديسيو: يتعلق الأمر دائماً بقبول أفق بعيد للحياة للحصول على أي شيء؟

كاليبزبو: يا أوديسيو أردت القصد من كلامي راحة البال وكيف نهرع للاستسلام. فهل تساءلت ذات يوم لماذا نحن كسرمديين نبحث عن الحلم؟ هل تساءلت ذات يوم أين تمضي الآلهة التي تتجاهل العالم؟ لماذا يا ترى تنغرس الآلهة في الزمن، مثلما تنغرس الأحجار في الأرض؟ فهي أيضاً سرمدية خالدة. ومن ذا

الذي أكونه أنا؟ كاليبزبو من هي يا ترى؟

أوديسيو: سألتك أن تكوني سعيدة.

كاليبزبو: يا أوديسيو ليس هذا عصب القضية. فحتى هواء الجزيرة البائسة هذه راح يتوهج الآن بعواصف البحر وزقزقات الطيور. إنها أرض مهجورة، وفي هذا الخلاء الكبير لا شيء يستحق البكاء. ألم تشعر أنت في بعض الأيام بهذا الصمت المطبق؟ وكأن كل شيء تجره عداوات قديمة وحضور غائب؟

أوديسيو: إنك على أية حال قادرة على الحديث إلى الصخور.

كاليبزبو: أقول لك إنه الصمت. شيء ما قديم يكاد يكون ميتاً. ذلك الذي كان ولن يكون إطلاقاً في ما بعد. في عالم الآلهة الموغل في القدم، حينما كانت كل تحركاتي تشير إلى النصيب، كانت لي أسماء مخيفة، يا أوديسيو. إن الأرض والبحر كانا في زمن مضى يخضعان لمشيئتي، بعدها خذلني التعب، ومرّ الزمن مسرعاً. لم أعد أرغب بالحركة مثلما كنت. بعض منّا قاوم الآلهة الجديدة تاركاً أسماء كثيرة تتحلّل في الزمن. كل شيء بقي على حالته الأولى، فلا شيء يستحق عناء التخاصم مع الأرباب الجدد بشأن النصيب، ها أنا لا أجهل الأفق الذي يضفي معنى على حياتي.

أوديسيو: لكن ألم تكوني سرمدية؟

كاليبزبو: وأنا كذلك الآن، يا أوديسيو. فلا أمل لي في الموت. ولا أمل لي في الحياة. أقبل اللحظة الراهنة لا غير. أنتم أيها الفانون من البشر تنتظركم أشياء كثيرة تكاد تكون متشابهة مع الشيخوخة، والأحزان، واليأس. لماذا لا تريد أن تسند رأسك مثلي في هذه الجزيرة؟

أوديسيو: سأقوم بذلك، حتى لو اعتقدت بدواخلي بأنك خاضعة لأمور أخرى بعيدة عن حياتي. لكن حتى أنت التي كنت يوماً ما سيدة كل الأشياء تبدين حاجتك إلى وجودي، أنا الإنسان الفاني، كي أعينك على التحمل.

كاليبزبو: إنه بشير خير يا أوديسيو. ليس هناك صمت حقيقي إن لم نتقاسمه.

أوديسيو: ألا يكفي أنني معك طيلة هذا النهار؟

كاليبزبو: لست معي، يا أوديسيو. فأنت لا تقبل بالأفق البعيد لمستقبل هذه الجزيرة، أنت لا تريد اللجوء إلا إلى الأحزان.

أوديسيو: ما أحزن عليه، فلأنه جزء مني ومن نفسي ومن حياتي، مثلما هو العدم بالنسبة إليك. ما الذي تغير فيك منذ ذلك اليوم الذي أخضعت فيه الأرض والبحر لمشيئتك؟ وقتها راودك الشعور بأنك وحيدة وكنت متعبة ولم تعودي تتذكرين حتى أسماءك. لم يقطع عنك شيء. فما أنت عليه الآن كنت قد طلبته من قبل.

كاليبزبو: ما أنا عليه الآن يكاد لا يكون شيئاً، إني يا عزيزي أكاد أكون مثل أية امرأة فانية من البشر، مثل ظلال، مثلما هي حالك الآن. إن هذا يمثل رغبة في نوم عميق وطويل، ومن يدري متى توصلت لهذه الرغبة التي تشبه الحلم. إنني أخاف الفجر، أخاف اليقظة، وحين تبعد عني فذلك يعني مجيء الصحو الذي أخافه حقاً.

أوديسيو: أأنت السيدة التي تتكلم؟

كاليبزبو: إني أخاف اليقظة، أخاف الصحوة مثلما تخاف أنت من الموت. في بداية الأمر كنت أشبه الميتة، والآن ها أنا ذا أعلم كل مجريات الأمور التي تدور حولي. لم يبق مني في هذه الجزيرة سوى أصوات البحر والرياح. لم يكن الأمر قاسياً. كنت أنام. لكنك جئتني كمن يحمل جزيرة أخرى في أعماقه.

أوديسيو: منذ زمن طويل وأنا أبحث عنها. أنت لا تعرفين حالة الزائر الذي يضطرّ في أحيان كثيرة أن يغمض عينيه بسبب الخديعة. أما أنا فلا يمكنني القبول والاستسلام.

كاليبزبو: يا أوديسيو، أنتم الرجال تقولون بأن العثور على الأشياء الضائعة هو الشرّ بعينه. فالماضي لا يعود. لا شيء يتحمل مرور هذا الزمن. أنت الذي شاهد البحار والمحيطات، وصارع الجن والعفاريت... أيمكنك الآن أن تتعرّف

على بيتك بين تلك البيوت التي هجرتها؟

أوديسيو: أنت بالذات من قال بأنني أحمل الجزيرة في أعماقي.

كاليبزبو: أجل، لقد تغيرت، وضاع الصمت بين هدير البحر وتلاطم أمواجه بين الصخور، وبالتأكيد لن يقبل أحد بتلك البيوت ليقيم معك سوية. ستكون البيوت كوجوه طاعني السن، وكلماتك فيها سيكون لها معنى آخر. ستكون أكثر وحشة وستحمل اغتراباً كبيراً.

أوديسيو: سأعرف بعد قليل بأن عليّ التوقف.

كاليبزبو: إنه أمر يستحقّ العناء، يا أوديسيو. فمن لا يقف الآن حالاً ليصمد، فلن يقف في ما بعد إطلاقاً. ينبغي لك أن تحطّم النصيب المرسوم أمامك ولو مرّة. ينبغي لك الخروج إلى الطرقات، وأن تترك نفسك تغوص في هذا الزمن الجميل.

أوديسيو: إني لست سرمدياً خالداً.

كاليبزبو: ستكون، لو أصغيت إليّ. ماذا تعنيه حياة سرمدية إن لم يكن قبول اللحظة الآتية والماضية أيضاً؟ أتعني الثمالة، اللذة، والموت بلا هدف. فلِم كان عليه اضطرابك الخاطئ حتى الآن.

أوديسيو: لو عرفته لتخليت عنه. لكنك تنسين بعض الأشياء.

كاليبزبو: مثل ماذا؟

أوديسيو: إن ما أبحث عنه أتملكه مثلك في القلب.

●●●

البحـــيرة

كان «أبوليو»، صياداً من صيادي «تريزينا» الأوائل، مات مهموماً بشكوكه في «أفروديت»، لكن «ديانا» أحيته من جديد، وانتقلت به إلى إيطاليا في «سيريبي» الواقعة عند جبال الآلب الشمالية، إذ تبنته، وأسمته «فيربيو». وصار لـ«فيربيو» هذا ابن إثر لقائه بعروس البحر «أريجا». كانت بلاد الغرب الشمالي للقدماء هي بلاد الأموات، ولنتذكر بهذا الشأن ما جاء في «الأوديسا».

(حوار بين فيربيو وديانا)

فيربيو: لا بد أن أخبرك بأنني فخور لمجيئي إلى هنا. بدت لي هذه البحيرة كأنها ذلك البحر الأزلي. ولقد كنت مبتهجاً لأنني أحيا حياتك، وسأموت من أجل الجميع، وسأخدمك في الغابة أو فوق أعالي الجبال. هنا توجد حيوانات ضارية، في ذُرا الجبال، ولا يعرف الريفيون أحداً سواك. إن هذا البلد لا يمتلك أشياء ماضية، إنه بلد الأموات.

ديانا: يا «أبوليتو».

فيربيو: إن أبوليتو سبق وأن مات، أنت الذي أسماني فيربيو.

ديانا: يا أبوليتو، حتى حين تموتون أنتم أيها البشر الفانون لكم القدرة على مواصلة ذكرياتكم في الحياة.

فيربيو: لتصغي لي يا ديانا، إني ميت بالنسبة إلى الجميع ومع هذا ما زلت في خدمتك. حينما أخرجتني من عالم الأموات وأعدتني إلى عالم الأنوار لم أكن أتمنى سوى أن أتحرك من جديد، وأتنفس بملْء أعماقي وأصطفيك. حملتني إلى هنا حيث الأرض والسماء تتلألآن وكل شيء يبدو متماسكاً ومتشكلاً، كل شيء يتجدد. حتى الليل ما زال أكثر ألقاً وعمقاً مما هو عليه في الوطن. إن الزمن لا يعبر هنا إلى مدى آخر. ليس ثمة ذكريات لتروى، وهنا أنت وحدك تنفردين بالأحكام.

ديانا: أنت يا أبوليتو أشبه بمخزن عامر بالذكريات. لكنني أجزم بأن هذه هي أرض الأموات. ما الذي يحيا في عالم الأموات سوى المضيّ نحو الماضي من جديد؟

فيربيو: لقد قلت لك إن أبوليتو مات، وهذه البحيرة التي تشبه السماء لا تعرف أي شيء عن أبوليتو. لو لم أكن لبقيت هذه الأرض مثلما هي عليه الآن. تبدو وكأنها بلد متخيل غير حقيقي يمكن للمرء مشاهدته من وراء السحاب.

ذات مرة –في صباي– فكرت أن الشمس كانت تهبط وراء الجبال البعيدة، كان يكفي الذهاب والسعي لأشعر بداخلي بأني قد وصلت بلد الصباحات الطفولية، بلد الصيد، واللعب الأزلية.

قال لي أحد العبيد ذات يوم: لتبتهل إلى ذلك الذي تتمنى أيها الصغير، فالآلهة تهبه على الدوام. ولم أكن أعلم بأني أريد الموت.

ديانا: إنها ذكرى أخرى، بماذا تربطك؟

فيربيو: آه أيتها المتوحّشة، لا أعلم حقاً، تبدو الأشياء وكأنها حدثت حقاً. البارحة حينما فتحت عينيّ هنا في هذا الوادي الكبير، أدركت أن زمناً طويلاً قد مرّ، وهذه الجبال، هذه المياه، وهذه الأشجار الضخمة تبدو كلها باسقة وصمّاء، فمن يكون فيربيو يا ترى؟ هل أنا شيء آخر غير ذلك الغلام الذي كان يتمتّع على الدوام باستراحات طويلة، يجرّ الأنفاس من خلالها ثم يعود إلى اللعب كل صباح، وكأن الزمن يبدو معطلاً؟

ديانا: إنك أبوليتو، ذلك الصبي الذي مات كي يتبعني. وها أنت الآن تحيا وراء الزمن. لا حاجة لك للذكريات. معي اليوم تعيش، فهذا هو زمنك الحالي كالأرانب، مثل الغزلان، مثل الذئاب. هذه ليست أرض أموات، إنما هي الفجر المطلّ لصباح دائم. لا حاجة لك للذكريات. فهذه الحياة طالما عرفتها وخبرتها.

فيربيو: هنا، حتى قذارة الأشياء هي حقاً أكثر حياة منها في الوطن. في كل الأشياء ثمة أنوار مشعة كما لو أنها تصدر من الأعماق، وكأنها قوة تتكلّم قبل أن تحاورها الأيام. ماذا تعني لك أيتها الآلهة أرض «أسبيريي» هذه؟

ديانا: ليست مختلفة عن أراض أخرى مترامية الأطراف تمتد تحت السماء. نحن لا نحيا الماضي أو المستقبل. فكل يوم بالنسبة لنا يشبه سابقه. إن ذلك الذي يبدو لك صمتاً مطبقاً هي سماؤنا التي نحياها.

فيربيو: ومع ذلك فقد عشت في أماكن عزيزة عليك. اصطدمت فوق «الديدمو»،

قطعت ضفاف «تيريزيني» ركضاً. إنها بلدان بائسة وموحشة مثل روحي. لكن في هذا الصمت اللاإنساني، في هذه الحياة اللامرئية لم أكن أستطيع التنفس. فما الذي يصنع العزلة؟

ديانا: طالما ما زلت فتى فإن بلداً لم يزره أحد من قبل لم يكن سوى بلد أموات، من بحرك أو من الجزر سيأتيه آخرون، وسوف يظنون أنهم نزلوا في عالم الموتى. ثمة برور أخرى أشد انحداراً وأكثر بعداً.

فيربيو: ثمة بحيرات أخرى، وأيام أخرى، مثل هذه، حيث المياه أكثر زرقة من الزمرد وسط الخضرة. بدت لي كلّها وكأنني عند ظلال الأشجار. وكلما تدفأت أكثر وأنا تحت هذه الشمس المشعّة وتغذيت من طيب هذه الأرض، كلما بدا لي وكأنني أنحلّ إلى قطرات وحشرجات تحملها أصوات البحيرة في شعاب الغابة. ثمة شيء قديم يقبع وراء الجذوع في الأحجار، ولربّما في عروق جسدي ذاتها.

ديانا: هذه كانت أحلامك حين كنت صبياً.

فيربيو: لم أعد صبياً، إنني أعرفك، فقد جئت من عالم الموتى، من أرض بعيدة مثل السحب هناك في الوادي. وها أنا ذا أعبر بين الجذوع والأشياء كما لو أنني سحابة.

ديانا: إنك سعيد يا أبوليتو. لو سمح للإنسان أن يكون سعيداً فستكون أنت ذلك الإنسان.

فيربيو: سعيد يكون الفتى الذي كنت، ذلك الذي مات وأنت أنقذته. فلك شكري، لكن المولود خادمك. إن الهارب الذي يحدق الآن في شجر السنديان، يحدق في الغابات، ليس سعيداً لأنه يجهل كيف يكون موجوداً فمن يجيبه؟ ومن يكلّمه؟

ديانا: على أية حال يا فيربيو، كل شيء هنا يحتاج إلى رفقة؟

فيربيو: أنت أدرى بما أريد.

ديانا: ينتهي الفانون من البشر من هذه الدنيا، لكن قلْ لي ما الذي تحملونه في دمائكم؟

فيربيو: أأنت من يسألني ماذا تعني الدماء؟

ديانا: ثمة طعم إلهي في كل دم مهدور. فكم مرة شاهدتك تقتل الماعز أو الذئاب وتقطع رقابها وتلطخ يديك بدمائها. كنت أنشد لك إعجاباً بكل ما تفعله. لكن الدم الآخر هو دمكم جميعاً، ذلك الذي يملأ عروقكم ويضيء عيونكم فأنا لا أعرفه جيداً على هذا النحو، لكني أعلم أنه لكم بمثابة الحياة والنصيب.

فيربيو: ذات يوم قبل هذا أهدرته، وشعرت جراءه بالقلق والضياع. وهذا اليوم أشعر بأنني حيّ، فلا صلابة النبات ولا ضوء البحيرة الباهر يكفياني. هذه الأشياء كالسحب لها ما يشبه الديمومة الأزلية في الصباح والمساء. إن حراس الآفاق خيالات عالم الموتى. دم آخر لا غير يمكنه أن يجعلني أكثر هدوءا، يسري بتمهل، وبعدها يرتوي الجسد.

ديانا: كلّ كلمة تنطق بها تشعرني برغبتك في أن تقتل.

فيربيو: إنك لم تخطئي، أيتها المتوحشة، ففي البداية حينما كنت أبوليتو، كنت أقتل الوحوش، وكان ذلك يكفيني. الآن هنا، في أرض الأموات هذه، حتى الوحوش تتملّص من بين يدي مثل السحب. إن الذنب ذنبي على ما أعتقد. لكنني أحتاج أن أجذب نحوي دماً حاراً. لي رغبة في امتلاك صوت ونصيب. آه أيتها المتوحشة، ادعي لي بهذا.

ديانا: لنفكّر في الأمر جيداً، يا فيربيو، يا أبوليتو. فأنت كنت سعيداً.

فيربيو: لا يهم أيتها السيدة، فقد أطرقت مفكراً على ضفاف البحيرة في العديد من المرات، متسائلاً بشأن الحياة كيف أكون سعيداً.

●●●

الساحـــرات

وصل «أوديسيو» إلى «سيرسي»، بعد أن تنبه إلى الخطر. وتم إنقاذه بأعجوبة في مواجهة السحرة. ومن هنا كان عبث الضربات التي كانت تكيلها حبات الساحرة. إن تلك الآلهة القديمة في حوض المتوسط، التي أسقطت عنها رتبتها، كانت على علم منذ القدم بأن «أوديسيو» سيكون من نصيبها. ولهذا لم يلجأ «هوميروس» لذلك الحساب المطلوب.

(حوار بين سيرسي وليوكوتياتا)

سيرسي: لتصدّقيني يا ليوكوتياتا عدت لا أفهم شيئاً. يحدث أحياناً أن نخطئ صيغة التخاطب. يحدث أن يفقد المرء، أياً كان، كلّ ذاكرته أو بعضها.

وحتى الحالة الأخيرة، فقد حصلت لي. الحقيقة إنني انتظرت هذه الحالة منذ زمن طويل. لقد قفز واضعاً يده على السيف، وذلك جعلني أفرح فرحاً كبيراً، كانت قناعتي كبيرة وبحجمها كانت الخديعة. فكرت أنه ربما لن يفعلها وسوف يراوغ النصيب. إنه «أوديسيو» بعد كل شيء. فكرت أنه شخص ما يريد العودة إلى بيته. وقبل هذا خطر لي أن أرحّله بحراً. شعرت في تلك اللحظات وكأنني فتاة، بالضبط مثلما كانوا يسألوننا في صبانا عما نفضله حين نكبر، فكانت الضحكات تأخذنا. إن كل شيء يبدو مضحكاً مثل رقصة عاجلة. لقد شدّني من يدي ورفع الصوت، فتحولت إلى كل ألوان الطيف. كنت حينها شاحبة يا ليوكوتياتا. وقتها احتضنت ركبتيه وبدأت دقات قلبي تهزّ كياني. «من تكن أنت؟ من أي أرض أتيت أيها المسكين؟» فكرت حينها أنه يجهل حتماً ما أكابده. كان عملاقاً، مكتملاً جسدياً، كان رجلاً جميلاً، يا ليوكوتياتا. فأي خنزير بشري، وأي ذئب بشري كان هذا؟

ليوكوتياتا: لكن هل تفوهت معه بهذه الأشياء طيلة العام الذي قضّاه معك؟

سيرسي: آه أيتها الصبية، لا تتكلّمي بشأن النصيب مع رجل. فهم يعتقدون بأنهم سيفصحون عن كل شيء حين سيفكّون وثاقهم. فيبدأ كل منهم بالحديث عن الأقدار. إنهم لا يدعوننا بالسيدات القدريات وأنت تعلمين هذا.

ليوكوتياتا: لعلهم لا يعرفون حقاً الفرح الحقيقي.

سيرسي: أجل، بعضهم يعرف الضحك عندما يكون عليه مواجهة نصيبه مباشرة. يعرفون أن من يأتيه فرحه ينبغي عليه أن يكون جاداً أو أن يرحل. إنهم لا يعرفون السخرية من الأشياء الإلهية. يجهلون أشياء كثيرة. أما مشاعرهم

فتبدو مهتزّة ومرتبكة. حياتهم كذلك قصيرة، بحيث يعجزون عن تقبل الأشياء المنجزة أو التي عرفت قبلهم. حتى «أوديسيو» الشجاع، كان سيعجز عن فهمي لو تفوّهتُ له بكلمة في هذا المعنى الذي أشرت إليه، وكان سيفكّر بالتأكيد في «بنيلوبا».

ليوكوتياتا: أي ضجر هذا.

سيرسي: نعم، لكن ينبغي أن تعلمي بأنني أفهمه. فمع «بنيلوبا» لم يكن له أن يفرح، في كل حالة يكون معها، حتى أثناء الغداء اليومي، كان فيها جاداً وصامتاً، كمن يهيئ نفسه لموت قادم. إنك لا تعرفين كم كانت فكرة الموت تجذبهما. كان الموت النصيب الذي يرتقبهما. إنها حالة ظلّت تتكرّر على الدوام. إنهما يصابان بالخدعة والمفاجأة حين تتغير الأشياء.

ليوكوتياتا: لماذا عندئذ لم يرد أن يتحول إلى خنزير؟

سيرسي: آه يا ليوكوتياتا، لم يرغب حتى أن يصبح رباً. إنك تعرفين أيضاً كم مرّة توسّلتْ وصلّتْ «كاليبزبو» له، ورجته أن يبقى. آه، إنها كانت معتوهة هي الأخرى. لم يكن «أوديسيو» هكذا رباً ولا خنزيراً. إنه إنسان فحسْب، بذكاء خارق، كان مفتوناً ومتفوقاً في مواجهة كل الأقدار.

ليوكوتياتا: فلتقولي يا عزيزتي، هل أعجبك كثيراً البقاء معه؟

سيرسي: أفكر في شيء واحد يا ليوكوتياتا. ليس من بيننا إلهة واحدة أرادت أن تتحول إلى فانية من البشر إطلاقاً. وفي هذا كذلك يكمن الجديد القادر على تحطيم كل الأغلال.

ليوكوتياتا: وهل ترغبين أنت بذلك؟

سيرسي: ماذا تقولين يا ليوكوتياتا. «أوديسيو» لم يكن يفهم سبب فرحي الداخلي. ولم يكن قد استوعب مداعباتي حتى حين كان يجيبني مبتسماً. ذات مرة ظننت أنني قد أفهمته، لماذا تكون البهائم بالنسبة لنا نحن السرمديات الخالدات أكثر قرباً من الرجل الذكي والشجاع. إن البهيمة التي تأكل وترتع تحيا بلا ذاكرة.

أجابني بأن كلباً كان ينتظره في الوطن، كلباً بائساً، ربما قد مات، ثم نطق لي اسم ذلك الكلب. أتفهمين يا ليوكوتياتا، ذلك الكلب كان له اسم.

ليوكوتياتا: حتى نحن يطلق الرجال علينا الأسماء.

سيرسي: لقد أطلق «أوديسيو» عليّ العديد من الأسماء وهو ينام فوق سريري. في كل مرة كان يطلق اسماً جديداً. في البداية كان مثل صرخة البهيمة، أشبه بصرخة خنزير، أو ذئب، لكنه كان يفطن بأنها كانت أسماء من كلمة واحدة. ناداني بأسماء كل الآلهة، أسماء شقيقاتنا، أسماء الأمهات، أسماء الأشياء والحياة. كانت كل هذه الأسماء تتصارع معي، مع النصيب. كان يريد تسميتي، ليحتفظ بي، ويجعلني فانية من البشر. كان يريد اقتطاع شيء مّا. إنه ذكاء يمتزج بشجاعة، كان يتمتع بهما، لكنه في مقابل كل ما ذكرته عنه كان يجهل الفرح الحقيقي تماماً. لم يعرف إطلاقاً ما هي ابتسامة الإله، إلا أننا نعرف أنه القدر.

ليوكوتياتا: لا أحد من الرجال يعرفنا نحن كما أنهم لا يعرفون البهجة الحقيقية. إنني شاهدت رجالك، وهم مخلوقات ذئبية أو خنزيرية. ما زالوا يزأرون حتى الآن. إنها لمصيبة كبيرة. يتمتعون في ذكائهم بقدرات طيبة. وأنت هل لعبت طويلاً معهم؟

سيرسي: إنني انتشي به، يا ليوكوتياتا. إنني أتذوقه كلما استطعت إلى ذلك سبيلا. فلم يكن نصيبي أن يقاسمني فراشي أحد الأرباب، ولم يقاسمني من الرجال إياه سوى «أوديسيو». كل الآخرين الذين لامستهم تحولوا إلى بهائم هائجة. وهكذا تبدأ دورة جديدة، فيأخذون بالبحث عني، مثلما تبحث البهائم عن ضالتها. أما أنا فلا يهمني الأمر، يا ليوكوتياتا. إن غضبهم ليس بأفضل ما دامت قلوبهم لم تيأس من محبة الإله. لكن في أحيان كثيرة لا ينبغي حتى الابتسام معهم. أشعر أحياناً وكأنهم يفهمونني، ثم يأتي بعدها الهرب والتواري. لم يحدث لي أن أذبلت عينيّ.

ليوكوتياتا: و«أوديسيو»؟

سيرسي: لا أسأل من يكون، أتريدين أنت معرفة من هو «أوديسيو»؟

ليوكوتياتا: أجل يا سيرسي.

سيرسي: في إحدى الليالي وصف لي وصوله إلى «إيا» وهو يهزّه خوف من الرفاق، من الخفر، ومن مرافقي السفن. قال لي بأنهم طيلة الليل كانوا يصغون للأزيز والزئير متمددين في أرديتهم على ضفاف البحر. بعدها تجلى النهار. فشاهدوا بعيداً عند أطراف الغابة إحدى البهائم تغتسل، فصرخوا لهول البهجة. راح بعد ذلك يشعر بالوطن والبيوت والأشياء. قال لي وهو يبتسم كما يبتسم كلّ الرجال، وكان جالساً بجانبي أمام الموقد، إنه يريد أن ينسى من كان وأين كان. وفي تلك الليلة ناداني بـ«بيتلوبا».

ليوكوتياتا: آه يا سيرسي، أهكذا إذن وبمثل هذه الخيبة؟

سيرسي: يا ليوكوتياتا الغالية، حتى أنا كنت خائفة، ودعوته أن يبكي.

ليوكوتياتا: لتتصوري.

سيرسي: لا، لم يبك. كان يعلم بداخله أن سيرسي تحبّ البهائم، وأنها في المروج ووسط الأحزان لا تعرف البكاء، إلا أنه بكى متأخّراً. بكى في اليوم الذي أخبرته فيه بما تبقى له من طريق، وأنه سيهبط إلى الجحيم إلى ظلمات المحيط. إنه البكاء الذي يوضّح الرؤية ويهب القوة. إني أفهمه ففي تلك الليلة تحدث إليّ وهو يضحك بغموض عن طفولته وعن النصيب، سأل عني، كان يضحك وهو يتكلم، أتفهمين؟

ليوكوتياتا: لا أفهم.

سيرسي: كان ضاحكاً ملء الفم وبصوت مرتفع، لكن العينين كانتا تعجان بالذكريات. ثم أخيراً طلب مني أن أغني، ورحت أغني بصوتي الأجش. كان صوتي يحمل أنغام الطفولة والبيت. بعدها راح غنائي يعذبه شيئاً فشيئاً، فكنت حينئذ له بمثابة «بينلوبا». ولشدة دهشته وضع رأسه بين يديه.

ليوكوتياتا: ومن كان يضحك في النهاية؟

سيرسي: لا أحد يا ليوكوتياتا. حتى أنا كنت في تلك الليلة مثل فانية من البشر. كنت اسماً: «بينلوبا». وتلك كانت المرة الوحيدة التي لم أبتسم فيها، إذ أودعت روحي لدى نصيبي وأغمضت عينيّ.

ليوكوتياتا: وهذا الرجل هل كان حقّاً يحب كلباً؟

سيرسي: إنه يحب كلّ شيء، الكلب، المرأة، الابن، وسفينة ليركب بها البحر، وعودة الأيام تلك التي بدت له وكأنها ترسم كل أقداره. كان يعدو خلف الموت وهو يعرف حقيقته. راح يثري الأرض بكلمات وأفعال.

ليوكوتياتا: آه يا سيرسي، لا أملك عينيك، لكن تمتلكني هنا الرغبة بأن أفرح حقاً. ربما كنت ساذجة.

سيرسي: قلتها له فزَمّ حالاً شفتيه، بعدها بقليل قال لي: لو لم يكن لي رفاق ينتظرون لفعلت أشياء كثيرة.

ليوكوتياتا: إنه على أية حال غيور.

سيرسي: ليس غيوراً. إنه يتمسّك بهم. كان يفهم كلّ شيء عدا ابتساماتنا نحن الآلهة. ذلك النهار الذي بكى فيه فوق سرير نومي، لم أشاهده يبكي بسبب الخوف، بل لأنه أُكرِه على الرحيل. كان شيئاً معلوماً قبل أن يَفرض القدر مشيئته عليه. سألني «لماذا تقومين بمثل هذا؟» ووضع السيف في غمده وتوجّه صوب البحر. فحملت له الخاتم الأسود. وبينما كان يبكي على الرفاق وهو يشير إلى تحليق العصافير تحت سقف البيت قال لي: «إنهم كذلك يهاجرون. لكن العصافير لا تعرف ما تفعل. أنت أيتها السيدة تعرفين ما تفعلين».

ليوكوتياتا: ألم يقل لك شيئاً آخر؟

سيرسي: لا شيء آخر.

ليوكوتياتا: يا سيرسي، لماذا لم تقتليه؟

سيرسي: آه إني حقاً بليدة. أحياناً أنسى بأننا نحن الأخريات نعرف ذلك، فأفرح وقتها

مثل صبية. كأن هذه الأشياء تحدث للكبار، للأولمبيين، وتأتي هكذا من دون تقدير، ولكن عبر صور لا تعقل، مليئة بالمفاجآت والمفارقات. لا أعرف في كل مرة ما أقوله وما أفعله. وكل ما أقوله وأفعله، يصبح هكذا جديداً، مدهشاً وكأنه لعبة، كلعبة الشطرنج تلك التي علمني إياها «أوديسيو». لكل شيء قاعدة ونظام، ولكنه بتلك الظرافة وروح المفاجأة كان يقول، وهو يحرك البيادق العاجية، بأن تلك اللعبة هي الحياة، وإنها طريقة صالحة للانتصار على الزمن.

ليوكوتياتا: إنك تتذكرين عنه أشياء عديدة. لم تجعلي منه لا خنزيراً ولا ذئباً، بل ذكرى.

سيرسي: إن الرجل الفاني، يا ليوكوتياتا، ليس له سوى هذه الأزلية، ذكرى نحملها وذكرى نتركها. إنها أسماء وكلمات. وأمام هذه الذكريات يضحكون هم أيضاً مستسلمين.

ليوكوتياتا: يا سيرسي إنك كذلك تتلفّظين بكلمات.

سيرسي: يا ليوكوتياتا، إني أعرف ما هو قدري، فلا تخافي!

●●●

الثـــور

إن الجميع يعلمون أن «تسيو» وهو يعود من جزيرة «كريت»، توهّم بأنه نسي الأشرعة السوداء فوق الشجرة كعلامات حداد. ولأن والده اعتقد بأنه قد مات، نزل إلى البحر وهجر المملكة.

(حوار بين ليلكو وتسيو)

ليلكو: تلك الهضاب هي الوطن، أيها السيد.

تسيو: ليس ثمة أرض بعد البحر موشاة بضوء الشفق لا تبدو وكأنها الهضبة القديمة.

ليلكو: حينما كنا نلحظ الشمس تغرب خلف «إيدا» كنّا نتبادل الأنخاب أحياناً حتى يتملّكنا الحنين.

تسيو: جميلة هي العودة وجميل هو الذهاب، يا ليلكو. فلنشرب ثانية. لنشرب نخب الماضي. جميل كل شيء هجرناه واستعدناه من جديد.

ليلكو: طيلة البقاء في الجزيرة، لم أسمعك تتحدث عن الوطن. لم تكن تفكر في العديد من الأشياء المهجورة. كنت تحيا أنت الآخر من أجل يومك. وشاهدتك تغادر تلك الأرض كما لو أنك تغادر البيوت من دون أن تلتفت إلى الوراء. هذا المساء هل تفكّر من جديد في الماضي؟

تسيو: إننا نحن أحياء، يا ليلكو، أمام هذا النبيذ، والبحر على مرمى حجر، وفي ليلة شبيهة، نفكر مرة أخرى بأشياء عديدة حتى وإن لم يهبنا النبيذ والبحر السلام الذي ننشده.

ليلكو: أي شيء تخاف؟ سيُقال بأنك لا تؤمن بالعودة. لماذا لا تأمر بإنزال الأشرعة السوداء وتغطي السفينة بالبياض، إذ كنت وعدت والدك بإنجاز هذا؟

تسيو: لم يمض الوقت بعد، يا ليلكو. يعجبني أن أشعر بصرير خلف رأسي تتركه تلك الأشرعة، تماماً كما كنا نجري وسط المخاطر ولا أحد منكم كان يعلم بأننا سنعود.

ليلكو: وأنت هل كنت تعلم يا تسيو؟

تسيو: في المكان القريب... سيْفي لا يخطئ.

ليلكو: لكن لماذا تتكلم متذمراً؟

تسيو: لا أتكلم متذمّراً، أفكر في الناس الذين أجهلهم، أفكر في أيام الحصاد الأخيرة في تلك البيوت، في الفناءات الواسعة، في الجنود الذين كانوا يطلقون عليّ لقب الملك–الثور، هل تتذكّر؟ أما أنا فقد بدأت أتفهّمهم. لقد قالوا لنا: في غابات «إيدا» ثمة مغارات للآلهة، هناك كان الأرباب يولدون ويموتون. هل تفهمني يا ليلكو؟ في تلك الجزيرة يتقاتل الأرباب مثل البهائم، وقاتلهم يصبح هو إلههم. نحن آنذاك حاولنا الصعود في ما وراء «إيدا».

ليلكو: يحتاج هذا الأمر إلى رباطة جأش، فذلك المكان كان بعيداً عن البيت.

تسيو: إنهم قالوا لنا أشياء لا تصدق عن نسائهم، الشقراوات الممتلئات، اللواتي كنّ يقضين الصباح مستلقيات تحت أشعة الشمس فوق سطوح ما يحصد في الليل، وكن يتوجهن قافزات إلى حقول «إيدا» ويحتضنّ الأشجار والبهائم في أحيان كثيرة، وكنّ يرغبن بإشعال حرائق الفرح الداخلي بمن يحيطهن.

ليلكو: إن النساء وحدهن يتمتعن بالشجاعة في الجزيرة. أنت ملمّ كثيراً بأسرار النساء يا تسيو.

تسيو: ثمة شيء أعرفه. أفضّل النساء اللواتي يلازمن مغازل الحياكة.

ليلكو: لكن في الجزيرة لا توجد مغازل حياكة. إن كل شيء يبتعنه يأتي عبر البحار. ما الذي تريد أن تفعله النساء؟

تسيو: لا ينبغي التفكير في الآلهة والتحول تحت الشمس، ولا ينبغي البحث عن الإلهي في جذوع الأشجار والبحار. في البداية ظننت أن الذنب يقع على الآباء، أولئك التجار النهمين الذين يتزينون كالنساء وتعجبهم رؤية الغلمان على ظهور الثيران. لكن ليس هذا هو الأمر، هذا ليس كل شيء، إنه دم آخر. كان ثمة زمان لم تكن تعرف فيه سوى الأرباب. كانت هناك الشمس، والجذوع، والبحر، كنا نسحق الجميع أمام الآلهة. عندما تهرب امرأة من رجل، ويجد هذا الرجل نفسه قابعاً من جديد خلف الشمس ووسط البهائم، فذلك ليس ذنبه، بل ذنب ذلك الدم الفاسد، فأية فوضى هذه.

ليلكو: يمكنك أنت وحدك أن تقول هذا. هل تقصد بكلامك تلك المغتربة؟

تسيو: أجل أقصد هي أيضاً.

ليلكو: إنك سيد وما تقوم به يبدو صحيحاً. لكن بالنسبة لنا بدأ الأمر طفولياً وطيّعاً.

تسيو: إنه طيّع مثل الأعشاب ومثل البحر. بوسعك أن تفهم مما تنظر إليه بأنه يستسلم وأنه يسمعك أيضاً. مثل مراعي «إيدا» تماماً حيث تلتقي الأيدي بالسكين ليحلّ الفعل الذي يبتغيه المرء. لكن تأتي لحظة فيكون الصمت قد طوّقك ويكون عليك أن تقف. كانت مشقة شبيهة بما يلاقيه الوحش حين يغطس في الماء. حتى الشمس بدت هي الأخرى قابلة للصيد، وحتى الهواء أيضاً. فلا يمكنها التواصل مع الآلهة الكبرى عبر صراع لانهائي،كما هو الحال في صراع الأرض مع هذا الصمت العميق الذي يلفّها.

ليلكو: أعرف هذه الأشياء، مثلك. لكن تلك المغتربة أخرجتك من بين دم حيّ وفاسد. كانت المغتربة قد تركت آلهتها كي تتبعك.

تسيو: لكن الآلهة لم تتركنا.

ليلكو: كنت تدعي بأن الآلهة قد تأسرها حزناً على «إيدا».

تسيو: إن القاتل هو الرب الجديد. آه يا ليلكو، يمكن نحْر الآلهة ومعها الثيران في المغارة، لكن ذلك الإلهي الذي توارثناه ونحمله في دمائنا لا يقتل. حتى «آريادنه» كان دمها مسفوحاً في الجزيرة، فلقد عرفته مثل الثور.

ليلكو: إنك يا تسيو تبدو قاسياً. ما الذي سيقوله التعيس حين يصحو؟

تسيو: أعرف هذا. ربما سيصرخ لكن هذا لا يهمّ. استدعى الوطن بيوته وآلهته، فلا تنقصه الشمس والأرض. نحن الغرباء بالنسبة له لا نعني شيئاً.

ليلكو: كانت سيدة جميلة مخلوقة من تراب الأرض وأشعة الشمس.

تسيو: بينما نحن لسنا سوى بشر. أنا متأكد أن أحد الأرباب المبهمين والمتألمين، من ضمن تلك الآلهة التي ذاقت الموت قبل الآن، وكذلك الربة الكبرى التي

تحملهم في حضنها، سيكون مبعوثاً إليها كي يستشيرها، هل يا ترى سيكون جذعاً، حصاناً، أو جبلاً؟ هل ستكون بحيرة أو سحابة؟ كل شيء ممكن فوق هذه المياه.

ليلكو: أنا لا أفهم، أحياناً تتكلم وكأنك فتى يلهو. فلا تنس بأنك السيد ونحن نصغي إليك على الدوام. ولو إنك في أحيان أخرى تبدو مثل عجوز جلف. سيقال بأن الجزيرة قد تركت فيك شيئاً منها.

تسيو: حتى هذا ممكن الحدوث. من هو قادر على إتلاف نصيبه فهو قادر على خلق ما هو مطلوب، يا ليلكو. أنت لا تفكّر بنا، لكن نحن نأتي إليك من بعيد.

ليلكو: ألا يطيب لك حتى نبيذ الوطن؟

تسيو: إلى الآن لم نصل الوطن.

●●●

في العائلـــة

إن الأحداث الفاجعة التي عصفت ببيت «أتريدي» معروفة. سنكتفي هنا بالتذكير ببعض ما حدث. وُلدت «بيلوبا» من «تانتالو» الخرافي، ومن «بيلوبا» وُلد «تريستي» و«أتريو»، ومن «أتريو» وُلد «مينالاو» و«أكامينونا»، ومن هذا الأخير وُلد «أوريستا» الذي قتل الأم. وقد تمتعت «أتريدي» الأركادية والبحرية المنشأ بحظوة خاصة في هذه العائلة (فلنتذكر تضحية أرتيدا أفيجينيا). إن من يكتب هذه السطور مقتنع أشد الاقتناع بهذا، ولا يستقي ما يكتبه من الأمس.

(حوار بين كاستوري وبوليديوتا)

كاستوري: هل تتذكر، يا بولي، كيف انتزعناها من أيدي «تسيو»؟

بوليديوتا: كان الأمر يستحق ذلك العناء.

كاستوري: آنذاك كانت طفلة، وأذكر كيف كنت أفكر في الرعب الذي توجّبت مواجهته في تلك الغابة وأنا أقود فرس «تسيو»، الذي راح يطوي بي تلك الطرقات طيّاً. كنا نمتلك قدراً كبيراً من السذاجة.

بوليديوتا: الآن اكتسبتْ أنفسنا ثقة كبيرة.

كاستوري: الآن لها قوة «فريجي» و«داردانى». ها هي تضع البحر فاصلاً بيننا وبينها.

بوليديوتا: سنخوض غمار البحر كذلك.

كاستوري: يكفي يا بوليديوتا. لا يتعلق الأمر بعد بنا. إن اللعبة الآن في ملعب «أتريدي».

بوليديوتا: سنعبر البحر.

كاستوري: لتتأكد يا بولي من أن الأمر لا يستحق هذا العناء. لا تكن ساذجاً. لنترك هذا ليفعله بيت آل «أتريدي»، فالمستقبل لهم.

بوليديوتا: لكنها شقيقتنا.

كاستوري: كان علينا أن نفهم أنها لن تتوقف في «إسبرطة». فلم تكن من نساء البلاط.

بوليديوتا: وأيّ شيء آخر تريده أختنا يا كاستوري؟

كاستوري: هي لا تريد شيئاً. هذا هو الأمر تماماً كما طرحته عليك. إنها لم تزل تلك الطفلة التي كانت بالأمس، غير قادرة أن تتخذ لها زوجاً بصورة جادة لتسكن معه تحت سقف واحد. لكن الإلحاح لا ينفع معها. سنرى أنها لا بد أن تعود معنا يوماً.

بوليديوتا: من يدري ما سيفعله آل «أتريدي» لفدية الدم. إنهم ليسوا ممن يتحملون الإهانة، فشرفهم شبيه بشرف الآلهة.

كاستوري: لنترك الآلهة. إنها عائلة كانت تأكل بعضها بعضاً في سالف الأزمان، ابتداء بـ«تانتالو» الذي أعدّ الابن للمائدة.

بوليديوتا: ولكن هل هذه الوقائع التي تروى صحيحة حقاً؟

كاستوري: إنها عطاياهم، فهم بشر يعيشون بين صخور كل من «ميجينا» و«إسبرطة»، ويضعون على وجوههم أقنعة ذهبية ليصبحوا سادة البحر، الذي يشاهدونه فقط عبر الثغور الجريحة، التي ينزوون بقاعها فيصيرون قادرين على كل شيء. لكن هل سألت ذات يوم يا بولي، لماذا نساؤهم وشقيقاتهم يقمن بإراقة الدماء حال دخولهن عالم الوحشة والجنون؟ إن أفضلهن لا تحتمل ذلك. لم يكن «بيلوبيدا» فقط هو من تعرض لفقء عينيه بيد زوجته. لا أدري إن كان هذا هو شرف الآلهة.

بوليديوتا: إن أختنا الأخرى، «كليتيسترا»، تقاوم هي كذلك.

كاستوري: نحن بانتظار النهاية، فهي ستكشف عن الحقيقة.

بوليديوتا: إن كنت تعرف كل هذا، فكيف وافقت على هذه الزيجات؟

كاستوري: أنا لم أوافق. وهذه أشياء تفوق الرغبة والإرادة. فكل رجل يجد الزوجة التي يستحق.

بوليديوتا: ماذا تعني؟ أتقصد أن النساء أجدر بهم؟ وهل شقيقتنا مذنبة؟

كاستوري: فلنترك هذا الأمر يا بولي. لا أحد يصغي إلينا. فمن الواضح أن «الأتريديين» وآباءهم قد تزوجوا باستمرار الصنف ذاته من النساء. ربما نحن أشقاؤهم لا نعرف جيداً حتى الآن من كانت «هيلينا». فقد تطلب الأمر «تسيو» الذي حضر كي يقدم لنا حكمته في هذا الأمر. وبعد «أتريدا» بات هو الآخر الآن «باريدا» المتّصِف بالجمود والتعجرف. إني أتساءل: أيمكن أن يكون كل شيء صدفة؟ فهي دائماً من ينبغي عليها أن تصطدم وتصارع مثل هؤلاء الأوغاد؟ من الواضح أنها مخلوقة لهم، كما هم مخلوقون لها.

بوليديوتا: لكنك مجنونة.

كاستوري: ليس ثمة جنون في هذه الحالة. إن كان «البيلوبيديون» قد أضاعوا رؤوسهم فإن بعضهم الآخر قد أضاع الرقاب أيضاً، فمن يفكر بذلك؟ إنهم ينتسبون إلى ملوك البحر، الذين لا يخرجون من بيوتهم وتستهويهم نزعة الحكم من الكراسي العالية. فربما شاهدوا العالم ذات يوم. وكان «تانتالو» الخرافي هو الأول بينهم، وهذا مؤكد، ومن ثم عاشوا منغلقين مع نسائهم تحيطهم الجوقة الذهبية. كانوا كثيري الشكوك والتذمر، عاجزين عن القيام بأي فعل يجلب الفائدة، غذاؤهم من البحر، يحيون فوق أرض جرداء يمتلكها الفقر، شرهين وصداميين. أيدهشك أنهم بحثوا عن بعض الأشياء القوية. أجل بحثوا عن أشياء تكاد تكون وحشية وانعزلوا مع أشيائهم تلك فوق الجبال.

بوليديوتا: لا أفهم ما دخل شقيقاتنا بكل هذا. لا أفهم عندما تقول بأن شقيقتنا خلقت من أجل «باريدا» و«تسيو».

كاستوري: لهم أو لغيرهم، يا بوليديوتا، لا يعني شيئاً. إننا نتحدث عن نصيب «أتريدي»، لا عن «أبوداميا» الموغلة في القدم. إنك تعلمين بأن الكنّات يتشابهن إلى حد اللعنة، مثلما تتشابه فصيلة من المهرات. سيقال بأنه في تلك الأزمنة، وفي تلك العائلة، ثمة رجل بحث أبداً عن المخلوقة ذاتها ووجدها. من «أبوداميا» إلى «أنوماي» حتى شقيقاتنا أجبرن جميعاً على الصراع والدفاع عن أنفسهن. من الواضح أن هذا يعجب آل «بيلوبيدا»، الذين لن يتعرفوا على الأمر ولكنه يعجبهم. إنهم بشر محتالون ودمويون، غلاظ القلوب ومكتنزون، بداخل كل منهم حاجة لامرأة تضطهدهم.

بوليديوتا: إنك تكرر على الدوام «أبوداميا»... «أبوداميا»، فحتى أنا أعرف أن «أبوداميا» هذه كانت تثير حتى الخيول. لكن شقيقاتنا لا علاقة لهن بالأمر. إن يد «هيلينا» مثل يد طفلة، لم تضرب بها أحداً إطلاقاً. كيف يمكنها أن تشبههن؟

كاستوري: إننا لا نعرف عن النساء يا «بوليديوتا» أشياء كثيرة. إننا ترعرعنا معها في

المرتفعات، وهي تبدو لنا دوماً وكأنها الطفلة التي كانت تلعب بالكرات. فليس ثمة ضرورة لإثارة رغبات الخيول. يكفي أن تعجب واحدة من تلك «الهينيلاوات» أحد ملوك البحر.

بوليديوتا: وبعدها، فهل قامت «أبوداميا» بأشياء رهيبة؟

كاستوري: كانت تعامل الرجال مثلما تتعامل مع الخيول. أقنعت قائد الآليات الحربية بأن يقتل أبيها، ودفعت «بيلونا» لأن يغتال ذلك القائد. فأوجدت بذلك للعالم الإخوة القتلة. وهكذا أعطت الإذن لشلال الدماء كي يتفجّر في كل مكان. إلا أنها لم تهرب من البيت، وهذا لا جدال فيه.

بوليديوتا: لكن ألم تقلْ إن الذنب كان ذنب «بيلونا»؟

كاستوري: قلت إن «بيلونا» وأهله أعجبتهم نساء شبيهات كن قد خلقن لهم.

بوليديوتا: «هيلينا» لم تقتل أحداً ولم تدفع بأيّ إلى التهلكة.

كاستوري: هل أنت متأكد أيها الأخ؟ لتتذكر ملياً كيف أبعدنا عن «تسيو» ثلاثاً من الخيول، كانت تعيش في الغابة. والآن ها أنت ذاتك تتساءل كم من الدماء هدرت آل «أتريدي».

بوليديوتا: لكنها لا تحمل ضغينة لأحد. هل تعتقد أن «أبوداميا» كانت قد استدعت القائد؟ هل ابتسمت لخادمه وقالت له بأن الأب كان يشتهيها لنفسه؟ فهي لم تصرّح إن كانت شهوة الأب تلك لم تعجبها.

كاستوري: لكي تغتال تكفي نظرة واحدة. وعندما شوهد «مرتيليو» مخدوعاً من ابن العفريت، وأراد أن يصرخ، كان يكفي أن تقول «أبوداميا» للزوج، بأنه كان يعرف كل شيء عن «إينوماد»، وأنه كان عليه أن يكون منتبها. يستمتع «البيلوبوديون» على الدوام بالكلمات المتشابهة.

بوليديوتا: على أية حال لا يعني هذا أن كل النساء يمتلكن نزعة القتل.

كاستوري: ليس كلهن، ثمة من يحنين الرأس، وهناك من يعرفن كيف يخدمن الحياة. لكن الصخرة تبعث هذا أيضاً. «البيلوبوديون» يَقتلون ويُقتلون، فهم بحاجة

لأن يضطهِدوا أو أن يكونوا مضطهَدين.

بوليديوتا: إن شقيقتنا مقتنعة بضرورة الهرب.

كاستوري: أتعتقد بهذا أيها الأخ؟ فلتتذكر «إيروبا» وزوجة «أتريو».

بوليديوتا: لكن «إيروبا» كانت قد قتلت في البحر.

كاستوري: ليس قبل أن تدعو العاشق ليسرق الكنوز. ها هي المرأة التي أصابتها الصخرة بالجنون. إنها امرأة كان بإمكانها أن تقضي حياتها مرتاحة، فحتى هي كان يمكنها أن تتعافى من عشيقها. كان العشيق «تيسيتا»، أما الزوج فكان «أتريو»، وكلاهما قد اختارها. إنهما لم يتركاها تنعم بسلام، إذ أطلقا سراحها هي الأخرى. «البيلوبوديون» متعطشون على الدوام لإظهار حماستهم.

بوليديوتا: أتعني أنهم سيقتلون شقيقتنا بحجّة أنها فاجرة أيضاً؟

كاستوري: كانت كذلك، يا بولي، كانت كذلك. لكن ليس شهوانياً من يمتلك الرغبة وكذلك أيضاً من يتزوج «أتريدا». ألا تفهم أيها الأخ أن أولئك قد وضعوا شهواتهم في الأذرع العنيفة، في العبودية وفي الدماء. إنهم لا يعرفون أن يفعلوا شيئاً بامرأة سمحة سوى أن يجعلوها تمتلك صفات النذالة. عندهم حاجة للالتقاء بعيون باردة وقاتلة، عيون لا تطرف لها أهداب، مثل عيون «أبوداميا».

بوليديوتا: إن شقيقتنا لها هذه النظرة هي الأخرى.

كاستوري: لهم حاجة لعذراء قاسية وغليظة الطباع، تلك التي تعبر فوق الجبال. وكل امرأة يتزوجونها يريدون هذا منها. كانوا يعدّون لهن الأبناء كوليمة، وينحرون لهنّ البنات.

بوليديوتا: إنها أشياء مضت وولّت.

كاستوري: سيفعلونها من جديد، يا بوليديوتا.

●●●

المغـــامرون

ذكر لنا «بيندار» المعبد المقام فوق «أكروكورنيتو»، الذي أداره «إيرودولا»، أن جميع الفتيان قتلة الجن والعفاريت، ومن ضمنهم «تسيو» أثينا، صادفهم حظ سيئ مع النساء. يمكن افتراض مثل هذا الأمر حتى وإن تكن التقاليد السابقة لا تتفق معه. وقد حدثنا «أوربيدا» طويلاً عن واحدة من المآسي الأليمة، عن امرأة من أكثر النساء قسوة وشدّة، وأعني بها «ميديا». فهي ساحرة وغيورة وقاتلة لأطفالها.

(حوار بين إيسون وميليتا)

إيسون: فلتزيحي حتى الحجاب يا ميليتا، فها أنا ذا أستشعر بالنسيم الذي يملأه. في صباح مثل هذا سيحب «إيسو» أيضاً النظر إلى السماء. فلتقولي لنا كيف حال البحر. ولتخبرينا بالذي يحدث على رصيف الميناء.

ميليتا: آه أيها الملك إيسون، يا لها من متعة هنا في الأعالي. إن المساطب تضج بالناس، وثمة سفينة تبتعد وسط القوارب، تبدو متداخلة بينها ومضيئة باضطراب. إنك تشهد الرايات الخفاقة والأكاليل. كم من الناس راحوا يتسلّقون الجدران والأنصاب. إن أشعة الشمس تخترق عينيّ.

إيسون: ستأتي رفيقاتك أيضاً ليسلّمن عليك هل تلمحينهن يا ميليتا؟

ميليتا: لا أعرف، أرى العديد من النسوة. وأرى البحارة الذين يؤدون لنا التحيات كأنهم صغار لا ينفصلون عن الحبال.

إيسون: سلّمي عليهم يا ميليتا، لا بد أنها سفينة «قبرص». سيعبرون نحو جزرك. ومع شهرة «كورينتو» ومعبده فلا بد لهم أن يتطرّقوا في حديثهم إليك.

ميليتا: ما الذي تريد أن يقولوه عني أيها السيد؟ من يريد أن يتذكّرني في هذه الجزر النائية؟

إيسون: ثمة من يذكر الفتيان دوماً. إننا نفكّر عفوياً على الدوام في الفتيان والآلهة، أليسوا هم كذلك فتياناً؟ لهذا كلّنا نذكرهم ونحسدهم.

ميليتا: إننا نخدمهم أيها الملك إيسون. وحتى أنا أخدم الآلهة.

إيسون: سيكون أحدهم ضيفنا يا ميليتا. إنه بحّار، يتسلق المعبد كي يفوز برؤيتك. إنني عجوز يا ميليتا، ولا يمكنني الصعود إلى العلى. لكن ذات مرة في «أولكو»، ولم تكوني أنت قد جئت إلى الحياة بعد، كنت قطعت الجبل لأجدني معك.

ميليتا: أنت تأمر ونحن نخضع. آه، ها هي السفينة تفتح أشرعتها، وكلها بيضاء. فلتأت وتنظر إليها، أيها الملك إيسون.

إيسون: لتبقي أنت عند النافذة، يا ميليتا. ها أنا أنظر إليك في ما أنت تحدّقين في السفينة، وكأنني أراكما أنت والسفينة تقتحمان الرياح سوياً. في الصباح سأرتجف. فأنا رجل عجوز. سأشاهد العديد من الأشياء لو نظرت هناك في المنخفضات.

ميليتا: إن السفينة تبحر تحت أشعة الشمس. تبدو وكأنها حمامة تحلّق في العلى.

إيسون: إن كل هذه السفن تمضي من «قبرص» ومن «كورنيتو» لتخوض غمار البحر. مرت حقبة كان فيها البحر أشبه بالصحراء. فنحن الأوائل الذين اقتحمناه وأنت لم تولدي بعد.

ميليتا: لكن أيها السيد أيُعقل أن ما من أحد تجاسر كي يعبره؟

إيسون: إنها عذرية الأشياء، يا ميليتا فهي تخيف أكثر من المجازفة. فلتفكري في الرعب الذي تثيره ذُرا الجبال، ولتفكري في صدى الأشياء وغيابها الأزلي.

ميليتا: لن أذهب إطلاقاً إلى الجبال. لكن لا أعتقد أن البحر يخيف.

إيسون: إنه لم يرعب حقاً أحداً. نحن انطلقنا من «أولكو» ذات صباح كهذا، وكنا جميعاً فتياناً لنا آلهتنا التي نعبدها. كان الإبحار ممتعاً، فلم نكن نفكر في ما يأتي به الغد، ثم توالت المخاطر والأحداث. كان عالماً أكثر فتوة، يا ميليتا. كانت الأيام رائعة، وكانت الليالي مظلمة غالباً، حيث كان يمكن أن يحدث كل شيء. في كل مرة كانت المخاطر تتجسد أمام عيون الرجال والصقور. وقد اختفى بعضنا، وبعضنا قد مات. كان كل حدث بمثابة عزاء كبير يلفّ قلوب الجميع. في كل صباح كان البحر أجمل، وأكثر عذرية، أما الأنهر فكانت تمرّ وسط الانتظار الطويل. ثم تهطل الأمطار، وتعبر السحب ويتساقط الرذاذ الأسود.

ميليتا: هذه أشياء معروفة.

إيسون: لم يكن البحر هو المجازفة. فقد كبرنا بين مرسى وآخر. في البداية كنا أكثر قوة. انفصلنا عن أشياء كثيرة. كنا مثل الآلهة يا ميليتا. لكن، وهنا جوهر

المسألة، كان كل هذا يجذبنا لنقوم بأعمال باهرة إلا أنها عابرة. أبحرنا إلى «فاسي»، آه.. كنت فتى وقتها، وكنت أحدق في النصيب الذي سيأتي.

ميليتا: حين يتحدثون عنكم، وراء المعبد، يأخذ الصوت بالخفوت على الدوام.

إيسون: إنهم يضحكون أحياناً، أعرف هذا يا ميليتا. فمدينة «كورنيتو» لا تعرف سوى البهجة. ويقال: متى سيكفّ ذلك العجوز عن الثرثرة حول آلهته؟ فالعديد من تلك الآلهة ماتت كما يموت الآخرون. إن «كورنيتو» تريد الحياة واستمرارها الأبدي.

ميليتا: لا يتحدث أحد عن الساحرة أيها الملك إيسون: تلك المرأة التي عرفها الكثيرون. آه.. كم بودّي أن تقول لي شيئاً عنها وكيف كانت.

إيسون: لقد عرف الجميع إحدى الساحرات يا ميليتا، فالمعبد هناك يحثّ على السخرية. لقد عرف جميعنا، العجائز والشيوخ، وحتى الموتى، الساحرة.

ميليتا: لكن أيها الملك إيسون، كيف كانت الساحرة التي تعرفت عليها؟

إيسون: اقتحمنا البحر، قتلنا العفاريت، وضعنا أقدامنا في مراعي «كوالكيكو»، وكأنها أشبه بسحابة من ذهب كانت تخيّم فوق الغابات. لقد مات الكثير إما بسبب السحر أو نتيجة التعلق حتى الوله بإحدى الساحرات. انتهى رأس أحدنا مقطوعاً في أحد الأنهار. وبعضنا الآن وقد صاروا شيوخاً عجائز يتحدثون إليك، شاهدوا أولادهم وقد ضحّت بهم الأم الهائجة.

ميليتا: يقولون إنها لم تمت أيها السيد وإن سحرها انتصر على الموت.

إيسون: إنه نصيبها ولا أحسدها عليه. كانت تتنفس الموت وتسفحه عن روحها. ربما عادت إلى بيتها.

ميليتا: لكن كيف استطاعت الإمساك بأولادها؟ لا بد أنها بكت طويلاً.

إيسون: لم أشاهدها تبكي، لم تكن «ميديا» لتبكي. بل رأيتها تبتسم فقط في ذلك اليوم، حينما صرحت بأنها ربما ستتبعني.

ميليتا: وقد تبعتك فعلاً، أيها الملك إيسون، حين هجرت الوطن والبيوت ورضيت

بالنصيب. ولقد كنت أيضاً قاسياً مثل باقي الفتيان.

إيسون: كنت فتى يا ميليتا وفي تلك الأزمنة الغابرة لم تكن لأحد القدرة على خذلاني. ولكن حتى ذلك الحين لم أكن أعلم بأن الحكمة هي من اختصاصهم. حكمة الأعياد. فقد طلبت من الإلهة أشياء مستحيلة التحقيق وأنا أتساءل ما الذي كان يتعذّر علينا تحقيقه نحن محطّمي الغول، سادة السحب الذهبية؟ إنهم يقومون بالشرور كلّها ليصبحوا كباراً وليكونوا آلهة.

ميليتا: ولماذا تكون ضحيتكم على الدوام امرأة؟

إيسون: يا صغيرتي، إنك ترجعين لذلك المعبد ولا تعرفين بأن إلى المعبد –معبدكم– يدخل الإنسان ليصبح رباً، على الأقل ليوم، لساعة. أيأتي ليتمتّع معك كما لو أنك إلهة؟ يحاول الرجل التمتع باستمرار مع من يرغب، فيفطن بعدها لحاجته إلى مداعبة جسد بشري يتجسّد في المرأة البائسة التي هي أنتِ. وعندئذ يحاول البحث خارج المعبد ويغضب لكي يكون رباً.

ميليتا: وهناك كذلك من يقنعه بهذا الأمر، أيها السيد.

إيسون: أجل، ذلك الذي شاخ وبلغ أرذل العمر أو من ينحدر منكم. ولكن ليس قبل أن يجرب كل شيء. ليس الذي رأى أياماً أخرى. أسمعهم يتكلّمون عن ابن «أجيو» الذي نزل عالم الأموات لكي يختطف «بيرسيفونا»، ملك أثينا الذي مات غريقاً في البحر؟

ميليتا: يتكلّم عن هذا أبناء «فاليرو»، الذي كان بحاراً مثلك.

إيسون: يا صغيرتي ميليتا كان ربّاً أو يكاد. وقد وجد امرأته وراء البحار. إنها امرأة مثل الساحرة ساعدته في نصْب بعض الحيل الفاشلة، وهجرته إلى إحدى الجزر ذات صباح. بعد هذا أنجز مشاريع أخرى وتعرّف على سماوات أخرى. وكان «أنتيوبا» قد أصبح بعد هذا كلّه قمراً آخر، «أمازون» عنيداً، ثم بعد ذلك أتى دور «فيدرا»، ضوء النهار، التي قتلت هي أيضاً. وأعقبتها «هيلينا» ابنة «ليدا»، وأخريات كثيرات. فضلاً عن محاولته اختطاف «بيرسيفونا» من

مداخل عالم الأموات. واحدة فقط من كلّ هؤلاء لم يرغب بها. فقد هربت هي الأخرى، المعروفة بقاتلة الأطفال من مدينة «كورنيتو»، إنها الساحرة. أجل أنا أعرف كل هذا.

ميليتا: لكن، هل تتذكّرها أيها السيد؟ إنك أطيب من ذلك الملك القديم. فمنذ ذلك الوقت لم تعد بعدها مرهوناً للبكاء.

إيسون: تعلمت في «كورنيتو» ألاّ أكون ربّاً مثلك يا ميليتا.

ميليتا: آه يا سيدي إيسون. أي شيء أكون أنا؟

إيسون: إنك امرأة بحرية صغيرة، تنزل من المعبد القديم حين يدعوها الشيخ العجوز. فأنت حقاً إلهة.

ميليتا: أنا أمقُتها.

إيسون: إن الجزيرة التي تحمل اسمك هي عبارة عن عرش للإلهة. أتعرفين أنت هذا؟

ميليتا: إنه اسم صغير، أيها السيد، أطلق عليّ مزاحاً لا غير. أحياناً أفكر بأسماء الساحرات الجميلات، أسماء النساء التعيسات اللواتي بكين لأجلكم.

إيسون: و«إيولا» و«ميكارا» و«أوتشا» و«أبوليتا» و«إنفالا» و«ديانييرا»، هل تعرفين من الذي يبكي الآخرين؟

ميليتا: آه.. لكن ذلك كان رباً هو الآخر، وها هو الآن يحيا بين الآلهة.

إيسون: إنه يحكي ذلك لهرقل المسكين الذي كان هو الآخر معنا، وأنا لا أحسده على الإطلاق.

●●●

الكرمـــة

بعد مجازفة الكهف، يهجر «تسيو» «أريادنا»، التي ستكون من نصيب «ديونيسو» العائد من بلاد الهند البعيدة، إذ يجدها فوق جزيرة «ناسو»، التي ستنتهي في السماء بين الأبراج.

(حوار بين ليوكوتيا وأريادنا)

ليوكوتيا: هل ستظلين تبكين، لوقت طويل يا أريادنا؟

أريادنا: آه، أين تكونين؟

ليوكوتيا: في البحر، مثلك. على أية حال، هل توقفت عن البكاء؟

أريادنا: لم أعد بعد الآن أشعر بالعزلة.

ليوكوتيا: كنت أعتقد بأنكم معشر النساء من البشر الفانيات، تبكين فقط حين يصغي لكُنّ أحد مّا.

أريادنا: مقارنة بعروس البحر فأنت شريرة.

ليوكوتيا: أهكذا، ورغم أنه قد مضى منذ وقت طويل؟ لماذا تعتقدون بأنه هجرك؟

أريادنا: لم تصرّحي لي بمواصفاتك.

ليوكوتيا: إني امرأة فعلت ما لم تفعليه أنت. حاولت الانتحار غرقاً في البحر، أطلقوا عليّ «آنو»، لكن إحدى الآلهة أنقذتني. إني الآن عروس الجزيرة.

أريادنا: وما الذي تريدينه مني؟

ليوكوتيا: أأنت من تتكلمين معي بهذه الصورة. أولاً إنك تعرفين ما أريد وأرغب به. جئت لأقول لك إن فتاك الغالي ذا الكلمات الممتلئة رقة وجمالاً، بشعره الأجعد، قد غادر إلى الأبد. لقد وبختك وحذرتك. فالشراع الأسْود الذي اختفى سيكون آخر الذكريات التي تغادرك. فلتركضي، ولتصرخي ولتجادلي، فالأمر قد انتهى وإلى الأبد.

أريادنا: وحتى أنت كانوا قد وبخوك فهل حاولت الانتحار؟

ليوكوتيا: لا يتعلق الأمر بي. ولكنك لست أهلاً لهذا الحوار الجاري الآن بيننا. إنك تبدين مثل المعتوهة.

أريادنا: فلتسمعي، يا عروس البحر، يتوجب أن تتكلّمي أنت معي. فلا أدري إن كان كلّ ما تقولينه يعني شيئاً ضئيلاً أو كبيراً. إذا ما أردت الانتحار فسأعرف

كيف أنفّذه بمفردي.

ليوكوتيا: فلتصدقي ما أقول أيتها المعتوهة. إن آلامك لا تعني شيئاً.

أريادنا: ولماذا جئت لتقولي هذا لي؟

ليوكوتيا: لأي سبب هجرك حسب ما تعتقدين؟

أريادنا: آه يا عروس البحر، لتتوقفي عن ذكر هذه الأمور.

ليوكوتيا: لتبكي، هذا أسهل. لا تتكلمي فالكلام لا ينفع بعد الآن. هكذا تتوارى الضغائن والأحداث العظيمة. هكذا تتجلى آلامك كما هي. لكن ما دام قلبك لا يتفطّر، وما دمت لا ترغبين بالانطفاء في البحر مثل جمرة، فلا يمكنك أن تقولي بأنك تعرفين الألم.

أريادنا: قبل هذا تفطّر القلب.

ليوكوتيا: لتبكي فلا ينفع غير البكاء، لا تتكلمي. فأنت لا تعرفين شيئاً، فثمة شخص آخر بانتظارك.

أريادنا: وما اسمك الآن يا عروس البحر؟

ليوكوتيا: ليوكوتيا، أتفهمين يا أريادنا. الشراع الأسود غادر وإلى الأبد وهذه الحكاية وصلت إلى نهايتها.

أريادنا: إن حياتي تنتهي وتتلاشى.

ليوكوتيا: ثمة شخص آخر ينتظرك. إنك لمعتوهة، ألا تعرفين تمجيد الربّ في أرضك؟

أريادنا: وهل يمكن لذلك الرب أن يمنحني السفينة من جديد؟

ليوكوتيا: سألتك أي رب تعرفين؟

أريادنا: ثمة جبل في الوطن، أخاف حتى أولئك الذين كانوا على متن السفينة. وهناك فوق هذا الجبل ولدت آلهة عظيمة، نحن مغرمات بها. وإنني دعوتها سابقاً، حين دعوت الجميع، لكن لا أحد من تلك الآلهة ودّ مساعدتي. ما الذي سأفعله؟ فلتقولي لي أنت.

ليوكوتيا: وما الذي تنتظرين من الآلهة أن تفعله لك؟

أريادنا: لا أنتظر شيئاً.

ليوكوتيا: إذن فلتصغي إليّ جيداً. لقد تحرّك أحدهم.

أريادنا: وماذا يعني؟

ليوكوتيا: بينما أتحدث لك، فإن أحدهم قد تحرّك.

أريادنا: أنت لا شيء سوى عروس البحر.

ليوكوتيا: من الممكن أن تعلن عروس البحر عن ربّ عظيم.

أريادنا: من هو يا ليوكوتيا، من؟

ليوكوتيا: أتفكّرين بالرب أو بالفتى الوسيم؟

أريادنا: لا أفقه شيئاً ممّا تقولين. إنني أسجد للآلهة.

ليوكوتيا: على أية حال فأنا قد فهمت أنه ربّ جديد. إنه الأكثر فتوة بين كلّ الآلهة. كان شاهدك وأُغرم بك.

أريادنا: أنا لا أعرفه.

ليوكوتيا: وُلد في مملكة طيبة وراح يطوف حول العالم، إنه إله البهجة والسرور. الجميع يتبعونه ويجلّونه.

أريادنا: وهل هو قادر على كلّ شيء؟

ليوكوتيا: إنه يقتل الأعداء ضاحكاً، تصحبه النيران والنمور، حياته زهو دائم لأنه معجب بمثل هذه الأجواء الاحتفالية.

أريادنا: لكن كيف تسنّى له أن يراني؟

ليوكوتيا: من يمكنه أن يعرف، فهو يعرف. ألم تتواجدي، في وقت من الأوقات، تحت الكرمة عند الساحل فوق إحدى الهضاب بامتداد البحر، في الساعة المثقلة حينما تهب الأرض عبقها؟ كانت هناك رائحة تتأرجح بين رائحة التين والصنوبر، تُشمّ حين تنضج الكروم، ويطفح الهواء بالروائح. أو لم تنظري ذات يوم صوب شجرة الرمان بثمارها وأزهارها؟ هنا في تلك البقعة من الأرض يحكم «ديونيسو»، في غابات الصنوبر وفوق البيادر.

أريادنا: أليس ثمة موضع منعزل تعجز عن رؤيته الآلهة؟

ليوكوتيا: يا عزيزتي، لكن الآلهة هي المكان، وهي العزلة، هي الزمن الذي يمضي. سيأتي «ديونيسو» وسيبدو وكأن رياحاً عظيمة تتقاذف كل الأشياء، ومن ضمنها أنت أيضاً، مثل تلك العواصف التي تعبر البيادر وحقول الكرم.

أريادنا: متى سيأتي؟

ليوكوتيا: عزيزتي، أنا التي بإمكانها إعلان ذلك، ولهذا السبب فقد هربت السفينة.

أريادنا: ومن قال لك هذا؟

ليوكوتيا: إني من مملكة طيبة يا أريادنا، أنا شقيقة والدتك.

أريادنا: في وطني يقال، إن الآلهة تولد فوق «إيدا» حيث لم يصل أي إنسان خلف الغابات الأخيرة، إننا نخاف حتى الظلال المتساقطة من الجبل. كيف يمكنني أن أتقبل الأشياء التي تقولين؟

ليوكوتيا: لقد تجاسرت طويلاً أيتها الصغيرة. ألم يكن لك بمثابة الربّ ذلك الفتى ذو الشعر الأجعد؟

أريادنا: كنت قد أنقذت لهذا الرب حياته، فما الذي حصلت عليه يا ترى؟

ليوكوتيا: أشياء كثيرة. رجفت وعانيت. فكرت حتى بالموت. عرفت ما الذي تعنيه الصحوة والدهشة. الآن ها أنت وحيدة وتنتظرين مجيء الربّ إليك.

أريادنا: وكيف سيكون هو؟ أشديد القسوة؟

ليوكوتيا: كل الأرباب قساة. ما الذي يعني ما تقولينه؟ إن كل ما هو سماوي يمتلك حتماً القسوة. وبإمكانه تحطيم الكائن الفاني الذي يقاوم. ولكي تتمتعي بكل صحوتك، عليك معرفة كيفية الاستسلام للنوم. فلا أحد من الآلهة يعرف كيف يحزن على شيء.

أريادنا: إن ربّ مملكة طيبة، ربك هذا، أحقّا إنه يقتل ضاحكاً؟

ليوكوتيا: بالتأكيد، إنه يقتل من يقاومه. فهو يفني من يتحدّاه. لكنه ليس أشّد قسوة من الآلهة الأخرى. فالابتسامة عنده بمثابة التنفس.

أريادنا: إنه لا يختلف عن الفانين.

ليوكوتيا: وحتى هذا ليس سوى الصحوة، أيتها الصبية. سيكون مثلما تحبين المكان، والينابيع، أو ساعات النهار. ليس ثمة رجل يساوي الكثير. إن الآلهة تبقى ما دامت الأشياء التي تكوّنها باقية، وما دامت الماعز تتابع قفزاتها هنا وهناك بين أشجار الصنوبر والكروم. إنه سيعجبك وستعجبينه.

أريادنا: سوف أموت مثلما تموت الماعز.

ليوكوتيا: فوق الكرم، في المساء، ثمة أيضاً نجوم مضيئة. إنه إله أخضر ذلك الذي ينتظرك، فلا تخافي.

●●●

البشـــر

يقول الكاتب الإغريقي «هزيود» عن «كراتوس» و«بيا»، وهما يمثلان إلهي -السلطة والقوة- إن البيت الذي يسكنانه ليس بعيداً عن «زيوس» رب الأرباب. إنها الهبة التي منحت للإله «زيوس» وهو يتصدّى للجبابرة. لكن الكلّ يعرف هروب «زيوس» في كثير من الحالات المماثلة.

(حوار بين كراتوس وبيّا)

كراتوس: إذا ما نزل الإله «زيوس» ليمشي بين الناس فإنه يأخذ طريق الوديان، التي يعمرها الكرم أو يمشي على ضفاف البحر. فبعض المرات يندفع «زيوس» نحو أبواب المدينة. فلا أحد يتفطّن إليه، لا الأب ولا الملك. لكنني أتساءل أحياناً ماذا يريد، وعمّا يبحث؟ بعد أن جاهد طويلاً من أجل أن يعطينا من بين يديه هذا العالم: الحقول الغنّاء، وقمم الجبال، والسحب. كان بإمكانه الجلوس هنا في الأعالي، فلا أحد سينغّص راحته، إلا أنه ظلّ يواصل مسيرته.

بيا: أي شيء غريب في هذا الأمر؟ وأيّ ملك هذا الذي ينتزع أي رغبة وأي نزوة.

كراتوس: بعيد عن الجبال وعنّا أيضاً، هل تفهم هذا؟ وعلينا أن نخدم أغراضه، وعلينا الاقتناع بأن العالم يخشاه ويترجّاه. فمن يا ترى خلق هنا هؤلاء الناس الصغار؟

بيا: إنهم جزء من عالمنا أيضاً، يا عزيزي.

كراتوس: لا أدري. شيء مّا لم يعد كما كان في السابق، أمّنا قالت: «زيوس سيأتي كالعاصفة، وإن الفصول ستتغير يوماً مّا». إن ابن الجبال هذا، الذي يحكم بالإشارات لم يعد مثل السادة الأوائل. في زمن مّا كانت الأشياء تتساقط، ومع كل شيء قادم كانت تجيء النهاية. أما الآن فتوجد قوانين رادعة. فقد جعل «زيوس» من نفسه خالداً ونحن في خدمته. وحتى البشر الصغار فإنهم يعبدونه. فهم يدركون بأن الموت ينتظرهم، فيبتهلون لنا. وإلى هذا الحدّ إني مقتنع باعتقاد الناس بأننا ولهذه الأسباب قاتلنا الجبابرة. لكن «زيوس»، ذلك الأزرق في أعالي الجبال، وعدنا بالهبات. يترك القمم العالية لينزل مشبعاً كلّ نزواته، وفي كلّ لحظة ليكون إنساناً بين البشر، وأنا لا أستسيغ هذا. وأنت أيتها الأخت ماذا تقولين؟

بيا: لا يمكن أن يكون سيداً إذا كانت القوانين التي سنها لا يمكنه خرقها. لكن مثل هذا، هل يمكن تحقيقه؟

كراتوس: أنا لا أفهم، وهذه هي العلة. فعندما كنا نحلّ نحن في الجبال لنحارب الجبابرة، كان يضحك وكان أشبه بالمنتصر. كان يقاتل ببضع إشارات، وبعدد قليل من المفردات. لم يقل أبداً بأنه سيكون بهذا العناد. فعدوّه كان طريحاً أرضاً، وهو كان يضحك. «سأسحقهم هكذا، جبابرة ورجالاً، هذا ما تمليه عليّ الرغبة، ومن دون شفقة أو رحمة». هكذا كان «زيوس» يفرح مرة بعد أخرى عندما كان يقدم ربة الآلهة «الباندورا» للناس، لتعاقبهم بسبب سرقتهم النار. من المستحيل أن تُعجب المدن والحقول «زيوس» الآن؟

بيا: لعل المرأة، «الباندورا» تمثل كارثة كبيرة. ولماذا يرضى هو عن نفسه، ألأنه أهدى البشر هذه المرأة «الباندورا» الكارثة؟

كراتوس: لكن هل تعرفين من هم البشر؟ إنهم بؤساء لحدّ الموت. إنهم أكثر بؤساً من الحشرات، وأكثر بؤساً من أوراق الشجر التي ماتت مجهولة في السنوات الماضية. فهم يموتون ولا يعرفون سبب موتهم. إلا أن البشر يدركون ما هو الموت، ولا يكفّون عن توسّلاتهم إلينا لمنحهم نعمة أو نظرة، بأن نشعل لهم النيران، تلك النيران التي سرقوها من حفر القصب. فمع النساء، ومع العطاءات، ومع الأغنيات، ومع الكلمات الجميلة فقد استولوا علينا جميعاً، إلى الحدّ الذي دفع ببعض السرمديين الخالدين ليكون بين صفوف البشر. إنهم يلتمسون رحمتنا للاختلاط بنا لأجل امتلاك أبناء من صلبنا. هل تفهمين لماذا أغضب أحياناً؟

بيا: سبق وأن قالت الأم هذا، وها أنت تقول الشيء نفسه: إن العالم يتغير على الدوام. فليس «زيوس» الذي يختلط بالبشر هو سيّد الجبال لهذا اليوم. لعلك أنت تنسى بأن «زيوس» عاش في زمن الهروب الكبير بإحدى جزر البحر، ومات ودفن كواحد من الأرباب.

كراتوس: إن هذا أمر معروف.

بيّا: لكن آثارَ سطوته ما زالت نافذة. لقد سقط سادة الضوضاء هؤلاء، الذين ومنذ زمن طويل يحكمون من دون قوانين. في البداية كان الإنسان مثل الوحش بل مثل الحجر، لكن الآن كلّ شيء سقط من دون اسم ومن دون قوانين. الآن ثمة حاجة لوقف الإلحاد. حتى عندما كان «زيوس» طفلاً يرضع من ضرع الماعز، وحتى عندما شبّ وترعرع بين الجبال والغابات، فإن كلمات الناس، وقوانين الشعوب، والألم، والموت، والندم، كانت كلّها من أجل خلق وريث للتاج، للقاضي الطيب «زيوس». إنه العقل السرمدي الخالد.

إنك تعتقد بأنك رأيته يسحق الجبابرة، مع أنك قلت هذا بنفسك، لكن كيف دحرهم وكيف كسب معركته ذلك الفتى الذي ولد من جديد ليكون بمصاف الناس وليصبح إلهاً؟

كراتوس: ليكن ذلك. فالقانون جدير بذلك. لكن لماذا هذا الإصرار على عودة «زيوس» ألأنه ملك لنا جميعاً؟

بيا: أخي... أخي، هل تريد أن تفهم بأنه العالم. فبرغم أنه لم يعد إلهياً، إلاّ أنّه على الدوام متجدّد وغني عن كلّ ما ينحدر من الأعالي. إن الكلمة الآن للإنسان ومن أي مكان جاء، فالإنسان الذي يكابد يعرف كيف يستحوذ على أرضه ويحس بمن يصغي إلى روائعه. جاءت الآلهة الفتية لمراقبة سادة الفوضى. كلهم يمشون على الأرض سواسية مع الناس. بعضهم يحمل عشقاً كبيراً للأماكن، للجبال، للمغارات، للسماوات المقفرة، إنهم يتوافدون إلى هنا أيضاً بأصواتهم، وبهم رغبة لكسر الصمت.

كراتوس: إن ابن إلهة الوقت «كرونو» هو من يتمشى فقط، يصغي ويعاقب مثلما يأمر القانون، لكن كيف يمكنه أن يتمتع وأن يترك المتعة؟ كيف يمكنه سرقة النساء والأبناء من بين هؤلاء الفانين؟

بيا: لو عرفتهم لفهمتهم. إنهم مجرد حشرات بائسة، لكن تخرج من بينهم أشياء

مدهشة، فمنهم الحيوان ومنهم الإنسان، لكن أياً منهم ومنا لا يعرف نقاء أعماق القلوب. يوجد بينهم من هو قادر على معارضة النصيب. فقط من خلال العيش معهم ومن أجلهم يمكن تذوّق طعم العالم.

كراتوس: ومن النساء، من بنات «الباندورا»، أي منهن الحيوان؟

بيّا: نساء أو حيوانات، فالجميع سواء، ماذا تعتقدين؟ إنهم البذرة الأكثر ثراء في حياة الفانين.

كراتوس: لكن أنت تعتبرين الإله «زيوس» وهو يتقرّب إليهم مجرّد حيوان أو آلهة؟

بيّا: أيها الساذج، إنه إذا اقترب من البشر فهو إنسان.

●●●

السـّر

يمكن أن تكون الأسرار «الإيليوزونية» نموذجاً للخلود، متجلية في «ديونيسو»، و«ديميترا»، وأيضاً في «كورا» و«بلاتون».

(حوار بين ديونيسو وديميترا)

ديونيسو: إن هؤلاء الفانين من البشر يتحلون حقاً بالدعابة، ونحن نعلم جيداً ما يفعلونه، ومن دونهم فأنا أتساءل عن أي معنى يحمله النهار. ماذا سنكون نحن «الأولمبيين» من دونهم؟ ينادوننا بأصواتهم الهامسة، ويطلقون علينا الأسماء.

ديميترا: أنا كنت قبلهم، يمكنني أن أقول لك، كنت لوحدي أرضاً، غابة، أفاعي، سلاحف. كنت الأرض، الهواء، والماء. أي شيء كان بإمكاني فعله؟ لقد أخذتنا العادة بأن نكون خالدين إلى الأبد.

ديونيسو: لا يمكن أن يحدث مثل هذا الأمر مع البشر.

ديميترا: صحيح. فكل شيء يمسونه يصبح زمناً، ويصبح فعلاً، يصبح انتظاراً وأملاً. وحتى موتهم يصبح شيئاً مّا، له قيمة.

ديونيسو: لهم أساليب في تسمية أنفسهم وفي تسمية الأشياء التي تحيط بهم. فنحن أيضاً نسعى لإثراء الحياة، كما هو حال الكرْم الذي عرفوا كيف يزرعونه على التلال. عندما جلبت أغصان العنب، لم أدرك بأن تلك المنحدرات القبيحة بوعورتها التي كانت مليئة حصى، بإمكانها أن تجعل هذا البلد جميلاً. وحدث الأمر ذاته مع القمح، والحال نفسه مع الحدائق. في كل مكان يبذلون فيه الجهد والكلمات، ينشأ نظام، شعور، وراحة.

ديميترا: لكن هل بإمكانهم معرفة قراءة تاريخنا؟ أنا أتساءل بعض المرات إن كنت حقاً «كايا»، و«ريا» و«جيبلا» الأم الكبيرة، كما يطلقون عليّ. إنهم يعرفون إعطاءنا الأسماء التي توحي إلينا، وقادرون على تمزيق أقدار خلودنا بكل أطوارها من أجل تلويننا كما يريدون في الأيام والبلدان التي نوجد فيها.

ديونيسو: بالنسبة لنا فأنت على الدوام إلهة كبرى.

ديميترا: ماذا يمكنني القول وفي بؤسهم هذا يوجد ثراء كبير؟ إني بالنسبة إليهم وفي

أحيان كثيرة لست أكثر من جبل أجرد موحش، مجرّد سحابة، أو مغارة، أنا سيدة الشوفان، والثيران، والقلاع الحصينة، والقبر، وأم الجميع أينما كانوا.

ديونيسو: يتكلّمون عني أيضاً باستمرار.

ديميترا: لا علينا، فإن «إيّاكو» يساعدهم أكثر. أنا أتساءل، بأي طريقة يمكننا مكافأتهم؟ بأن نكون إلى جنبهم، في الأنهر القصيرة التي يتلذذون فيها؟

ديونيسو: أنت أعطيتهم الشوفان ليأكلوه، وإن أعطيتهم الحياة أيتها الإلهة، فاتركيهم يعملون. فهل نحتاج شيئاً آخر؟

ديميترا: أنا لا أعرف كيف، لكن كل ما يخرج من الأيدي دائماً يتّسم بالضبابية لأن الفأس ليس له حدّان. إن الإله «تريتوليمو» كان على وشك أن يذبح ضيفه الذي جاء إليه من الشرق، وأهداه القمح. أسمع أنك أيضاً تسفك دماء بريئة.

ديونيسو: لعلهم لم يكونوا من البشر. وإن كانوا كذلك فلعلهم كانوا تعساء، ولذا كان لزاماً أن تنتهي حياتهم بالموت. فكل ثرائهم هو الموت، الذي يضطرهم للعمل، وأن يتوقعوا ويتطلعوا ويتذكروا، حتى ولو لم تعتقدي أيتها الإلهة بأنهم أكثر أهمية من القمح أو من النبيذ الذي نحتسيه. إن الدم فاسد، قذر.

ديميترا: أنت ما زلت شاباً يا إياكو، لا تعلم ما هو موجود في الدم، وأي شيء وجدوا فيه. الموت بالنسبة لك مثل الخمرة المهيّجة. لكن ألا تعتقد بأن كل الفانين من البشر عانوا مما تحدّثوا به إلينا. كم من أمهات فانيات فقدن آلهة «الكورا»، ولم يستطعن الحياة من جديد. اليوم أيضاً، فإن الهبة الأكثر ثراء هي معرفتهن كيف يمنحن الدماء.

ديونيسو: لكن أي هبة تلك يا «ديو»؟ أنت تعلمين أفضل مني بأن قتل الضحية يجعلهم يعتقدون بأن الوقت مناسب لقتلنا.

ديميترا: وهل هذا مبرر لمثل هذا الفعل؟ ولهذا السبب أقول لك ماذا وجدوا في الدم. فإذا كان الموت بالنسبة إليهم هو النهاية، فعليهم قتلنا ليرونا كيف نحيا من جديد.

ديونيسو: أتعتقدين بهذا؟ بالنسبة لي فإنهم سذّج، أو ربما بكل الأحوال فانون، كل ما يبدونه من حياة هو أنهم يسيرون نحو القتل. فتاريخهم غدوّ ورواح ما بين الحياة والموت. ولك مثل في «إيكاريو».

ديميترا: إنه مجرد تعيس.

ديونيسو: نعم، لكن «إيكاريو» قد قتل لأنه أراد ذلك. لعلّي اعتقدت بأن دمه هو مجرّد خمر. إنه يقطف الكرم، يسحقه، ينثره، كمجنون. إنها المرة الأولى التي يرونه في فناء الدار ينزع عناقيد العنب. فنثروه على العشب الأخضر بأداة الحرث. وبعد، فلماذا يذهب هذا الساذج إلى الحقول، إلى الرعاة، ليروي عطشهم؟ إنهم سكارى، مسمومون، متوحشون، مزّقوه على العشب الأخضر ومثّلوا بجسده، وبعد ذلك دفنوه. لعلهم ظنوا أنه مجرد نبيذ. إنه كان يعلم، وكان يريد ذلك. أكان بإمكانه أن يدهش ابنته، التي تذوّقت ذلك النبيذ؟ إنها هي الأخرى كانت تعلم. ماذا كان بالإمكان فعله من أجل إنهاء تلك الحكاية؟ هل كان الانتحار هيّناً كعنقود عنب مطروح تحت أشعة الشمس؟ لا شيء يدعو إلى الحزن. إن الفانين من البشر يروون على الدوام بأن التاريخ مخلوط بالدم.

ديميترا: وهل يُعدّ لك هذا شيئاً مفرحاً؟ سبق وأن سألتك ماذا سنكون دونهم، إن أتى يوم يضجرون فيه من الآلهة؟

ديونيسو: ولكن ماذا تريدين أن نعطيهم؟ فأي شيء يفعلونه هو على الدوام دم.

ديميترا: هنالك حلّ واحد وأنت تعرفه.

ديونيسو: أي شيء؟

ديميترا: مدّهم بهدف للموت.

ديونيسو: أي شيء تقولينه؟

ديميترا: أن نعلمهم سعادة الحياة.

ديونيسو: لكن ذلك يعني تغيير النصيب. يا «ديو» إنهم من الفانين.

ديميترا: اسمعني. سيأتي اليوم الذي يفكّرون فيه بذلك بمفردهم، وسيفعلون ذلك

من دوننا. سيروون ويتحدثون عن بشر هزموا الموت، بعضهم نزل إلى قعر جهنم. إنهم يفعلون ذلك بمفردهم، ونحن نعود لنكون: هواء، ماء، وتراباً.

ديونيسو: لهذا السبب، لا يمكن أن يعيشوا طويلاً.

ديميترا: أنت صبيّ ساذج، ماذا تعتقد؟ فالموت له هدف. إنهم يموتون ليحيوا من جديد هم أيضاً. فهم ليسوا بحاجة إلينا نحن الآلهة، إننا نعلم كيف يمكنهم أن يساووا بين الألم والموت. كما القمح والعنب، ينزلون إلى عالم الأموات من أجل الانبعاث من جديد، هكذا نعلم بأن الموت من أجلهم، هو حياة جديدة. نعطيهم هذا التصور. نعلمهم نصيباً يتشابك مع نصيبنا.

ديونيسو: سيموتون على السواء.

ديميترا: يموتون لكنهم سيكسبون الموت. سيروْن شيئاً مّا وراء الدم. سينظرون إلينا نحن الاثنين. لن يهمّهم الموت أبداً، ولن يكونوا بحاجة إلى تهدئة ما ينزف من دماء أخرى.

ديونيسو: يمكن فعل ذلك يا «ديو»، يمكن فعل ذلك. سيكون هذا بمثابة حكاية الحياة التي لا تنتهي. سيكون ما يشبه الطوفان. إنهم لا يعلمون ما النصيب. سيكونون خالدين. لكن لا تأملي فإن دماءهم ستتجمّد.

ديميترا: سيفكرون على الدوام بالخلود. إذا ما كان هناك خطر فإنهم سيهجرون هذه الأرياف والحقول الثرية.

ديونيسو: لكن في بعض المرات يكون القمح والعنب هدفاً للحياة الخالدة، فأي شيء سيراه البشر في الخبز والنبيذ؟ اللحم والدم، كما هو الحال الآن، وكما هو الحال على الدوام. اللحم والدم سينزفان في كل مكان ليس لأجل إيقاف الموت، لكن لمتابعة الخلود الذي لا يتوقف، الذي ينتظرهم.

ديميترا: يمكن القول بأنك ترى المستقبل. كيف يمكن قول ذلك؟

ديونيسو: كان يكفي أن أرى الماضي. يا «ديو»، ثقي بي. لكن سأعتمد عليك. ستكون هنالك على الدوام قصة تروى.

الطوفـــان

كان الطوفان الإغريقي عقاباً للإنسان الذي نسي إجلال الآلهة. وكان يعرف بأن الأرض بعثت من جديد لترمي الحصى من جديد.

(حوار بين ساتيرو وأمادريادا)

أمادريادا: أنا أسأل، ماذا يقول الفانون من البشر عن هذا الماء؟

ساتيرو: بعضهم يذهب إلى أنه أفضل شيء يكسبونه.

أمادريادا: هذه الساعة الأنهار ممتلئة، وعلى كل حال إنها تمطر والمياه تتسرّب من كل مكان.

ساتيرو: يحبسون أنفسهم داخل الكهوف والمغارات وثغور الجبال. يستمعون إلى المياه. يفكرون بأولئك الذين في الهضاب كيف يصارعون تدفق المياه بوهم كبير.

أمادريادا: إنهم يتوهمون حتى انتهاء الليل. لكن يوم غد، حين يعمّ الضياء المخيف، عندما يرون فقط بحراً يمتد إلى السماء، وعندما تتضاءل الجبال بحجمها، لن يبقوا في كهوفهم. سيضعون أكياساً على رؤوسهم لينظروا.

ساتيرو: إنك تخلطين الأمور بينهم وبين الحيوانات البرّية. فلا أحد من الفانين من البشر يدرك أثناء موته أن بإمكانه أن ينظر إلى الموت. إلى الحاجة إلى السعي، إلى التفكير، وإلى القول.

أمادريادا: لكن هذه المرة لن يبقى أحد. كيف يعملون يا ترى؟

ساتيرو: إنني أريدهم هنا، عندما يعلمون بأنهم جميعاً مدانون، كلهم سيحتفلون، وسترين ذلك. وسيبدأون البحث عنّا.

أمادريادا: آه، عنا نحن، وما دخلنا؟

ساتيرو: نعم لنا دخل في ذلك. إننا الاحتفال نفسه الذي يقيمونه لأنفسهم، نحن حياة بالنسبة إليهم. إنهم يبحثون عن الحياة معنا حتى النهاية.

أمادريادا: لا أفهم أية حياة يمكننا منحهم إياها، فنحن لا نعلم حتى بموتنا. كل ما نعلمه هو أن ننظر، أن نتابع النظر والإدراك والفهم. لكن أنت تقول بأنهم لا ينظرون، ولا يعرفون الخضوع. فأي شيء بإمكانهم أن يسألوننا؟

ساتيرو: أشياء كثيرة. فنحن بالنسبة إليهم مثل الحيوانات البرّية، التي تولد وتموت مثل أوراق الشجر. نحن نلمحهم يختفون بين الأغصان ولا أدري ما يعتقدونه عنّا. عندما نهرب ونختفي فنحن الحياة التي تتواصل في الغابات. إنها حياة مثل حياتهم، لكنها تنبع على الدوام، إنها أكثر ثراء. أقول لك، بأنهم يبحثون عنا. سيكون هذا أملهم الأخير.

أمادريادا: وماذا سيفعلون بكل هذه المياه؟

ساتيرو: ألا تعلم ما معنى الأمل؟ إنهم يعتقدون بأننا أيضاً لا يمكننا الاختفاء في الغابة. إنهم يؤكدون القول بأن البشر كلهم لا يمكنهم الاختفاء. خلاف ذلك فأي معنى لولادتهم ونشأتهم. وإن تعرفوا علينا؟ إنهم يعلمون بأن الكبار، من «الأولمبيين»، يريدون موتنا، لكن بما أننا مثلهم، مثل أي حيوان صغير، فنحن الحياة والأرض والحقيقة الأخرى. إن فصولهم السنوية تظلّ ذات عطاء كبير كما نظلّ نحن في احتفال دائم.

أمادريادا: إن هذا شيء مريح. إن أملهم هذا بالنسبة لنا هو النصيب.

ساتيرو: ليس كثيراً، سينقذون بعضه.

أمادريادا: نعم لكن من الذي استفزّ الآلهة الكبرى؟ من الذي أخلّ بكل هذه الأمور؟ من الذي حجب وجه الشمس؟ أعتقد أن الاتهام يتجه نحوهم، فهذا يريحهم.

ساتيرو: انهضي، أيتها العنز، أتعتقدين بهذه الأمور؟ ألا تفكرين بأنهم حقاً قد ألحقوا ضرراً بالحياة، وكان يمكن الاكتفاء بمعاقبتهم، من دون حاجة إلى «أولمبي» ليضعنا في هذا الطوفان؟ تأكّدي لو أن أحداً ما قد ألحق مثل هذا الضرر، فهو ليس منهم.

أمادريادا: على كل حال يتحتم موتهم. لكن كيف سيكون حالهم غداً عندما يعلمون بما حدث؟

ساتيرو: اصغي إلى جريان المياه أيتها الصغيرة، فيوم غد سنكون تحت الماء نحن أيضاً. سترين ما هو أسوأ، أنت التي تعجبك رؤية الأشياء. من حسن حظّنا أننا لا

نموت.

أمادريادا: بعض المرات، لا أميّز الأشياء. أتساءل، عن معنى الموت. إن ذلك حقاً هو الشيء الوحيد الذي ينقصني. نعرف كل الأشياء، ولكننا لا نعرف هذا الشيء البسيط. أرغب في تجربة، وبعدها أصحو، لأفهم هذا الأمر.

ساتيرو: اسمعي، لكن موتاً كهذا، لا يعني أبداً فهم معنى الموت. إنه الطوفان. الموت يعني عدم بقاء أي أحد يجهل سرّه. فهكذا يحدث حين يهمون بالبحث عنا ويترجوننا بأن ننقذهم ليكونوا أشباهنا، كالنبتة أو الصخرة، أو الجمادات التي لا تمس نقاوة النصيب. إنهم بهذا ينقذون أنفسهم. عندما تنسحب المياه ستولد من جديد الصخور، وجذوع الأشجار، كما كانت من قبل. لا يسأل الفانون من البشر عادة بأن أمراً مثل هذا حدث من قبل.

أمادريادا: غريب أمر الناس. إنهم يتعاملون مع النصيب والكينونة وكأنهما شيئان من الماضي.

ساتيرو: إن هذا يعني الأمل. إعطاء اسم لحضور النصيب.

أمادريادا: أتعتقد حقاً بأنهم سيرون جذوع الأشجار والصخور؟

ساتيرو: إنهم يعرفون جيداً كيف يعيدون خلق خرافاتهم. إن هؤلاء الفانين من البشر يعيشون كينونتهم، حسب الرعب الذي يخلقه هذا الليل، أو يعيشون الغد القادم وما يخلقه من أجواء خيالية. بإمكانهم أن يكونوا حيوانات متوحشة أو صخوراً، أو نباتات. بإمكانهم أن يكونوا آلهة أيضاً. أو أن يقتلوا آلهتهم من أجل أن يروها تولد من جديد. إنهم يعطون أنفسهم طرقاً مختلفة للإفلات من قبضة الموت. لا يوجد خيار آخر ما بين الموت والنصيب.

أمادريادا: إن الأمر هكذا، ولا يمكنني أن أبكيهم مرة أخرى. كان يسيراً أن يكون الأمر جميلاً، لو كان بالإمكان تحقيق تلك الرغبة المفاجئة بطريقتك.

ساتيرو: نعم، إنه جميل حقاً. لكن لا تعتقدْ بأنهم يفهمون كيف يحققون تلك الرغبة الجامحة. فليس لديهم الوقت للتمتّع بما تمليه عليهم الرغبة المفاجئة. إنهم

يعرفون فقط كيف يدفعون بشكل شخصي، هكذا هم.

أمادريادا: على الأقل إن هذا الطوفان سيخدمهم، وسيعلّمهم ما هو معنى اللعب، وما هو معنى الاحتفال. فالرغبة المفاجئة نشعرها نحن السرمديين الخالدين داخل النصيب، ونعرف بأنه من العبث أن نعيشها كونها لحظة خالدة داخل بؤسهم. لماذا يا ترى لا يفهمون ضعفهم الذي يجعلهم أحياناً أجلاّء.

ساتيرو: إن كل هذا لا يمكن امتلاكه يا صغيرة. نحن الذين نعرف كل هذا لا نجد أي فرق. بينما هم من يعيشون اللحظة لا يعرفون قيمة تلك اللحظات. إنهم يطمحون للحصول على الخلود الذي نحمله. هذا هو العالم.

أمادريادا: في قادم الأيام سيعرفون هم أيضاً أشياء جديدة أخرى. فالحصى والأرض سيغمرهما الضوء من جديد. لا يعيشون بالأمل أو الألم وحدهما. سترين بأن عالم البشر الجديد سيكتسب على الدوام شيئاً من الخلود.

ساتيرو: إذا أراد الرب، فسأكون أنا أيضاً سعيداً.

●●●

وحــــي الشاعر

إن من يقرأ عليه أن يدرك أن ما يُقدّم له هو من خلال رؤية الإغريق القدماء، فقد كان الاحتفال بالفنتازيا والذاكرة عندهم، على الدوام، في أعالي الجبال، بل على التلال، حيث يعاد إحياء مثل هذه الاحتفالات، ومعها ينزح الناس، باستمرار، من الأعالي نحو وهاد شبه الجزيرة الإغريقية.

(حوار بين منيموزينا وإزيودو)

منيموزينا: خلاصة القول إنك غير مقتنع.

إزيودو: أقول لك بأني إذا ما فكرت في قضية مّا عن الماضي، أكتشف مع الأيام بأن الوقت مختلف. أجد شيئاً مّا يضايقني، وأيضاً ما يتعلق بالعمل، إذ يبدو الحال وكأني أشبه بالسكّير، ولهذا أتوقف، لأهمّ بالصعود إلى أعالي الجبل. ولهذا فأنا أفكر لوحدي بأني كنت سعيداً.

منيموزينا: هكذا سيكون الحال على الدوام.

إزيودو: أنت تعرف جيداً كلّ الأسماء، فأي اسم أحمله أنا في هذا الصيف؟

منيموزينا: يمكنك مناداته باسمي، أو باسمك.

إزيودو: اسمي كرجل، «ميليتا» وهو لا يعني شيئاً. لكن ماذا ترغب أنت أن يطلقوا عليك؟ في كل مرة تختلف الكلمات التي يبتَهل بها إليك. أنت مثل الأم التي يتلاشى اسمها مع الأيام في البيوت الضيقة، وهي تتطلّع إلى أعالي الجبال. فالناس هناك يتحدثون عنك كثيراً. يقال إنه في وقت من الأوقات كنت في الجبال الأكثر وعورة، حيث تكثر الثلوج، والأشجار السوداء، والأشباح في مدينتي «تراجيا» أو في «تيساليا». ويطلقون عليك اسم «موزا»، وحي الشاعر. وبعضهم يدعوك باسم «كاليوبا» أو «كليو». لكن ما هو الاسم الحقيقي؟

منيموزينا: إنه حقاً أنا من هناك، ولي أسماء كثيرة. وستكون لي أسماء أخرى عندما أقرر النزول من أعالي الجبل «أكليا»، «إيجمونا»، «فاينا» حسب مجيء الرغبة المفاجئة في الحواضر الجديدة التي أتواجد فيها.

إزيودو: أيدفعك السأم أنت أيضاً للابتعاد عن هذا العالم؟ أنت إذن لست أحد الأرباب؟

منيموزينا: لا ضيق ولا آلهة يا عزيزي. فاليوم يعجبني هذا الجبل «إليكونا»، ربما لمجيئك أنت هنا. يعجبني البقاء حيث يوجد البشر، ولكن في منأى عنهم. لا أبحث

عن أحد ولكن أحب من يعرف كيف يتحدث.

إزيودو: أنا لا أعرف التحدث جيداً، ولكن عندما تكون حاضراً فإني أجيده. في صوتك وفي أسمائك المتعدّدة. ثمة ذكريات في كل زمن.

منيموزينا: في منطقة «تيساليا» فإن اسمي هو «منيما».

إزيودو: بعضهم يقول عنك بأنك أشبه بعجوز، مثل السلحفاة المتجعدة القوية. وبعضهم الآخر يقول إنك مثل الحورية الشابة، أو مثل الزهرة قبل تفتحها، أو مثل السحابة.

منيموزينا: وما هو رأيك أنت؟

إزيودو: أنا لا أعرف، أنت «كاليوبا» أو أنت «منيما». لك صوت ونظرة خالدة. أنت مثل التلال المنخفضة أو مثل جريان مياه النهر، إذ لا يمكن تحديدهما بزمن، فهما ليسا من الشباب ولا من الكهول. فبالنسبة إليهما لا يوجد زمن. فهما موجودان في الحياة على الدوام، ولا أعرف شيئاً آخر.

منيموزينا: لكن أنت أيضاً، يا عزيزي، لك حضورك. إن الوجود يعني لك السأم وعدم الراحة. فما الذي تتصوّره بالنسبة لحياتنا كخالدين؟

إزيودو: لا أستطيع تصوّر ذلك، أنا أحس بذلك، كما أستطيع إحساسه في قلبي.

منيموزينا: واصل الحديث، فهذا يعجبني.

إزيودو: لقد قلت كل شيء.

منيموزينا: أنا أعرفكم أيها الرجال، فأنتم تتحدّثون بأفواه ضيقة على الدوام.

إزيودو: نحن لا نعرف إلاّ الانحناء أمام الآلهة.

منيموزينا: لنترك الآلهة وشأنها، أنا موجودة قبلهم، يمكنك الحديث معي، فالرجال كلهم يتحدثون معي. انحنِ لي إن شئت ذلك. لكن قل لي كيف تتصورني ممتلئة بالحياة؟

إزيودو: كيف لي أن أعلم ذلك؟ لا توجد آلهة تدعوني إلى سريرها.

منيموزينا: أيها الساذج، إن للعالم زمناً يتحول، والوقت لا يعرف التوقف.

إزيودو: أنا أعرف فقط الأرض التي أعمل فيها.

منيموزينا: أنت إنسان بهيّ، أيها الراعي. عندك بهاء الإنسان الفاني. لكن نصيبك هو الذي يعرف الأشياء الأخرى. قل لي، لماذا عندما تتحدّث لي تعتقد بأنك سعيد؟

إزيودو: يمكنني الآن إجابتك. فالأشياء التي تتحدثين عنها لا تسبب إزعاجاً لما نعيشه في الحياة اليومية. إنك تعطين الأشياء مسمياتها كأنها أشياء في غاية الجمال ولكنها في الواقع حميمية كصوت مليء بالحنين البعيد، أو كرؤية صفحة الماء عندما تخلق دهشة التساؤل: أي رجل هذا؟

منيموزينا: يا عزيزي، ألم ترَ في حياتك، نبتة ما أو صخرة لهما الصبر نفسه؟

إزيودو: نعم، واجهت ذلك.

منيموزينا: هل عثرت على السبب؟

إزيودو: للحظة واحدة فقط. كيف لي أن أصِف هذه الحالة؟

منيموزينا: هل تساءلت لماذا لحظة واحدة تشبه لحظات كثيرة في الماضي، تجعلك سعيداً كما لو كنت إلها؟ إنك تنظر إلى أشجار الزيتون التي تنتصب على الدروب الضيقة، وهذا ما تراه في كل يوم ولعدة سنوات. سيأتي اليوم الذي يغادرك فيه هذا الضيق، ستمسد بيديك جذوع الأشجار القديمة كأنها صديق لك تلتقيه من جديد، ليقول لك كلمة واحدة بأن قلبك ينتظر محبة. في مرات أخرى، فإن الأمطار التي تهطل لأيّام، أو تغريد الطائر، أو مجرد سحابة ترشد رؤيتك للسماء. فللحظة في هذا الزمن يمكن التوقف، والأشياء العادية تشعرها في القلب كما لو أن البداية والنهاية لا وجود لهما أبداً. هل تساءلت ما معنى هذه الـ«لماذا»؟

إزيودو: أنت نفسك قلت بأن تلك اللحظة تتحول إلى ذكرى أو إلى نموذج.

منيموزينا: ألا يمكنك التفكير بوجود يتشكل كلّه من هذه اللحظات؟

إزيودو: نعم، يمكنني التفكير بذلك.

منيموزينا: على كل حال، هل تعلم كيف أعيش؟

إزيودو: أنا أثق بك يا «ميليتا» لأنك تستجمعين نفسك كلها في عينيك. فاسم «أويتيربا» الذي يطلقه العديد عليك لم يعد يدهشني. لكن تلك اللحظات الفانية لا تحمل أية حياة. إذا رغبت بإعادة تلك اللحظات، يمكن أن أفقدها مثلما تفقد الوردة أوراقها، وسيعود السأم من جديد.

منيموزينا: أنت قلت بأنك لا تذكر تلك اللحظات. فأي ذكريات هذه إذا كانت حالة عشق معاد؟ حاول أن تفهمني جيداً.

إزيودو: ماذا يعني هذا؟

منيموزينا: يعني أنك تعرف جيداً ما معنى الحياة الخالدة.

إزيودو: عندما أتحدث إليك أجد صعوبة في التماسك أمامك. إنك رأيت الأشياء منذ بدايتها، أنت شجرة الزيتون، أنت النظرة، أنت السحابة العابرة. عندما تنطقين باسم مّا أو تقولين شيئاً مّا، فأنت تقولينه وكأنه يسير نحو الأبدية.

منيموزينا: يا إزيودو، كل يوم أجدك هنا في الأعالي. وقبلك كنت أجدهم هنا في أعالي الجبال، وعلى ضفاف الأنهار الجرداء في كل من «تراجيا» و«بيريا». إنك تعجبني أكثر من الآخرين. أنت تعلم بأن الأشياء الخالدة تظلّ قريبة منكم على مدى خطوتين.

إزيودو: ليس من الصعب معرفة هذا الأمر، ولكن الإمساك به هو الصعب.

منيموزينا: توجد حاجة للعيش من أجلهم يا إزيودو وهذا يعني، بأن القلب نقي.

إزيودو: أستمع إليك بالتأكيد، لكن حياة الإنسان تنتشر في الأسفل، ما بين البيوت، وفي الحقول، أمام مواقد النار، وفي أسرة النوم. وكل يوم تولد من جديد لتضعك أمام الجهد نفسه وأمام الحاجة نفسها، وفي النهاية يكون السأم، يا «ميليتا». في كل مرة توجد عاصفة تجدّد حياة الحقول، فلا الموت ولا الألم الكبير قادران على تثبيط الهمَم، لكن التعب لا نهاية له. إنه كفاح من أجل البقاء من ساعة إلى ساعة. إن أخبار الأسى وألم الآخرين، الألم المسكين، تزعج

مثل ذبابة الصيف. هذه هي الحياة التي تقطع الأرجل لتحُول دون التواصل، يا «ميليتا».

منيموزينا: إني أجيء من أماكن أكثر جدباً، من أعماق الهاوية الندية اللاإنسانية، حيث هناك انفتاح للحياة أيضاً، بين أشجار الزيتون، تحت السماء، فإنكم لا تدرون ما القدر. فهل بلغك ما هو مستنقع «بويبيدا»؟

إزيودو: كلاّ.

منيموزينا: إنها أرض قاحلة، من الطين والقصب، ضبابية كأنها آتية من بدايات التاريخ، أو من صمت ينقنق، ليولد المخيفون والآلهة والقذارة الدامية. وحتى هذا اليوم فإن ساكني منطقة «تيساليا» يتحدثون قليلاً عنها، فلا الزمن ولا فصوله تروي عن تلك الأرض.

إزيودو: على كل حال أنت تقولين، يا ميليتا، إن تلك الأرض القاحلة قد خلقت بقدر إلهي. فصوتك قد أدركها. إلا إنها الآن أصبحت مكاناً مخيفاً ومقدساً. فلا أشجار الزيتون ولا سماوات «إليكونا» هي الحياة.

منيموزينا: ولك أيضاً، لا السأم ولا العودة إلى البيوت. وأنت، ألا تعي أن الإنسان، أي إنسان، يولد في تلك المستنقعات الدموية؟ من هو المقدس والإلهي الذي يرافقكم داخل مخادعكم، وفي الحقول، وأمام النيران؟ إن أي معروف يقدّمه الإنسان اليوم فإنه يمثل نموذجاً لما يصنعه الرب. في الليل والنهار ليس لديكم ولا لحظة واحدة، ولا حتى تلك اللحظات الوضيعة، فهي لا تنبع من صمتها الأصيل.

إزيودو: إنك تتكلمين، يا ميليتا، ولا يمكنني مقاومة روعتك. إذ يكفيني على الأقل عشقي لك.

منيموزينا: هناك أسلوب آخر يا عزيزي.

إزيديو: وما هو؟

منيموزينا: أن تقول للفانين من البشر هذه الأشياء التي تعرفها.

نبذة عن المترجم:

موسى الخميسي من مواليد بغداد عام 1947، صحافي وكاتب وفنان. له عدد من الأعمال المنشورة منها: كتاب «الموجة الثالثة في السينما الواقعية الإيطالية» من منشورات وزارة الثقافة السورية، وكتاب «تشكيليون عراقيون على خرائط المنفى» صادر عن دار المدى. كما نشر عدة دراسات متخصّصة في الفن والنقد التشكيلي العراقي.

حوارات مع ليوكو

في هذا الكتاب (حوارات مع ليوكو .. أساطير في أسرار الموت والحياة)، الذي نُشِر عام 1947م، يرحل الشاعر الإيطالي تشيزَري بافيزي في عمق الأسطورة ليفكّ رموزها الساحرة طائفاً في أعماق الميثولوجيا اليونانية القديمة، من أوديب وتيريزيا إلى كالبسو وأوديسيوس، ومن لاروس وثانتوس، إلى أخيل وباتروكلوس... إنها حوارات تمثل دعوة شعرية لمناقشة العلاقة بين الإنسان والطبيعة، الإنسان ومصيره المجهول، فالشاعر من خلال هذه الحوارات التي كتبها بلغة مبسّطة، يبحر في أسرار الموت والحياة، أسرار الألم والمعاناة، والحزن والفرح، الشجاعة والانكسار، من خلال الأسطورة القديمة، كأنها مناجاة لحياة الإنسان المعاصر.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

9 789948 019503